لنتكلم في الله

تساؤلات حول الذات الإلهية

مكتبة نور الدين

ملاحظات متفرّقة قبل البدء:

- هذا الكتيّب صـمّم للقراءة على الهاتف الذكيّ ، ولا وجود لنســخ ورقيـة منـه ، وذلـك لتعقيـدات العصــر العربي الحديـث ، من افتقارنـا للحريـة ، وصعوبة النشر ، وتفضيلات القرّاء.
- لا أعلم في كل العقائد _وقد درســتها جيدا_ سـببا وجيها لعدم البحث حول كلمة "الله" ، وهو بحث مطروق إســلاميا ، ومنذ زمن بعيد جدا ، لذلك من يســتغرب هذا فلا ينكرنه عليّ ، بل إنني أنـا من ينكر عليـه جهلـه بمشــروعيـة طرق هـذا المبحث.
- ليس في كل العقائد التي عرفتها ، ما يمنع أن نفكّر في الله ، لا في من حيث اســمه لغةً ولا في ذاتـه ، ومن قال إننا إن فكرنا به كفرنا به ، يتّهم مفهوم الله بأنه خداعٌ ينقضه مجرد التفكير فيه.
- الاعتقاد ليس شــيئا آخر غير أفكار ، وما دام المعتقـد فكرة أو أفكـارا ، فلا يمكن أن يكون التفكير به مفضـيا إلى إنكار المعتقد ، إلا أن يكون معتقـدا بـاطلا ، وعليـه فإن التفكير في الله عمـل

حسن ، إلا عند من يرى أن فكرة الله خدعة يبطلها التفكير بها.

- نحن نفكر في كل ما نحب ، وننفر من التفكير في كل ما نكره ، ونهرب من التفكير في ما يرعبنا ، ومن يهرب من الكلام حول الله هو محض خائف جبان ، قد يقاتل في الحرب لكنه جبان معرفيا ، يقر بأن تصديقه ضعيف ، لا يحتاج سوى قليل من التفكير لينهار! فإذا _وفقط إذا_ لم تكن من هؤلاء فأكمل القراءة.

- يتوسل دعاة الديانة المنطق والبراهين وحرية الفكر لكسب الناس في دعوتهم ، ويتحدثون في ذات الله كثيرا مع الملحدين ، لكنهم لسبب غامض يخوِّفون أتباع ديانتهم من الخوض في ذات الله! وكأن حديث الملحد في الله حلال له ، وحديث المصدق حرام ، هل يقبل هذا عقل!

- البراهين على التصديق بالخالق لا يمكن إرجاعها لأهل ملة بعينها ، فهى من المشترك الإنسانى ، والمسلمون لهم نصيبهم منها كغيرهم ، ونقاشها نقدا أو نقضا هو فحص لقوامية الحجج ، وليس إنكارا لله ، لكنه مساهمة في حوار حول الله.

- نقاش الحجج التى يقدمها غير المصدقين بالغيب شىء مهم ، يجب أن يفكر به المصدق بالغيب ، وإذا استطاع فلينقده أو ينقضه ، وإلا فليضع فى اعتباره على الأقل أن يكون أكثر تفهما لموقف غيره من التصديق ، وأن يعرف أن من خالفه امتلك سببا كافيا له لألّا يعتقد بما اعتقد به هو ، وربما أفضى النقاش إلى تفهم أكثر عند الجهتين.

- تبيان المغالطة في أي دعوى لا تعني خطأ مؤدى تلك الدعوى بالضرورة ، ولكن تعني نقد الحجة التي بنيت عليها هذه الدعوى ، لذلك فلا معنى لتشكيل صورة عن وجهة نظر الناقد لبنية الحجج التي تقوم عليها دعوى ما ، ورأيه في الدعوى نفسها!

- يستطيع أيّ شخص أن يدّعى أيّ مفهوم يعينه كمطلق لا يجوز نقاشه ، لكن هذا الادّعاء يعنيه هو فقط ، ولا يعنى من أراد البحث ، ولا يخفى أن الأشياء التى عُبدت فى التاريخ البشري كثيرة لدرجة أننا إن تجنبنا الحديث في المطلقات عند الجميع فسنسكت طويلا.

- عادة ما يرجع من يحاول حل مشـــكلة إلى المشـــكلة لإعادة التفكير بها هي لا بحلها ، عندما يجد الطريق مســـدودا أمام الحل ، مثلا يعود الطالب لقراءة الســـؤال في الامتحان ، عندما يجد أن إيجاد جواب لما فهمه من السؤال مستحيل ، وإعادة النظر في المشـــاكل بعين جديدة واجب العقل إذا لم يجد حلا لها.

- الأخلاق مبحث فلسفي ضخم ، لا يسعني أن أبسط فيه القول ، ولو كان هذا في وسعي ، فليس في وسع المقال أن يحتويه ، لكن الحديث يقتصر على إمكانية الوقوف على أرضية أخلاقية مشتركة مهما كان موقفنا من فكرة الله.

- قراءتنا للتاريخ ينتابها عوار كثير ، فهي معرضة للانتقاء المعتمد على ما نريده وما نخافه وما نركز عليه ، والمجال الذي ننتقي منه معرض أصـــلا للتآكل ، وما نتج عن هذا التآكل من فراغات ، نعرضه لعملية ترميم نعوض فيه الأجزاء الناقصة بأجزاء من خلقنا ، ثم نعيد تفســـير ما تبقى من أجزاء تتناقض مع روايتنا للتاريخ لتناســـب روايتنا أكثر ، هكذا يصـــبح الوهم المحبب حقيقة ، وهذا يفعله الجميع ، من يعظم الماضـــي ومن يحتقره ،

وكل ما يمكننا عمله لتجنب آثار قراءتنا المدمرة للتاريخ ، هو أن نعترف لأنفسنا بهذا ، وأن نعلم أن التاريخ وإن لم يكن غيبا تماما فهو كالغيب.

- الإنسان ابن بيئته ، والعقل الفردي صنيعة العقل الجمعي ، لغته ، ثقافته ، مشكلاته الواقعية ، منظومته الأخلاقية ، كل ما فيه ، هم أبناء بيئته ، ويبقى دوره في أن ينوع بيئته ولا يغلقها على حدود واقعه المكاني والزماني ، بالاطلاع والاحتكاك بغيره ، وبتغييرات يستحدثها في بيئته.

- اختلف المسلمون حول تفاصيل الشريعة اختلافا كبيرا ، وكان التكفير المصاحب لهذا الاختلاف أقل من التكفير المصاحب للاختلافات على العقيدة ، لكن هذا لا يعني أنه لم يكن موجودا ، ما نحن بصدده من حديث عن الشريعة قد لا يعجب بعض الناس ، لكن ما كانت جزئياته كلها تقريبا محل اختلاف ، فمن الطبيعي أن يكون بكليته محل اختلاف.

- في العربية وفي اللغة عموما ، ثمة معانٍ متعددة لكل لفظة ، حسب استخدامها ، وهذا لا ينفي عنها معناها المعجمي أو حتى معانيها

المختلفة في المعجم أيضا ، والفيصل في المعنى الاستعمالي هو السياق ، والبحث في السياق لفهم معنى كلمة وإن كانت لفظة الجلالة الله بحث طبيعي جدا ولا يصح أن يعدَّ تطاولا أو تعديا.

- ما أقوله هنا رأيي أنا ، وأحيانا أعدد بعض الوقائع لأدلل على رأيي ، وآخذ مما كتبه غيري ، أو ما استقر في أقوال كثيرين ، فما أشرت له بكونه ثابتا فهذا ما أظنه عليه ، وسائر قولي هو محض آرائي ، التي لولا كنت أظن صوابها لما اعتنقتها.
- تستطيع التدليل على أي شيء تريد بما تشاء من الدلائل ، وقد لا يكون أحدها هو سبب اقتناعك بالشيء ، وإن حصل وكان ، فليس لمن لم تصرح له بالسبب الذي دفعك أنت أن يتخرصه ، فنحن بشر قد يسبق العاطفي عندنا على المنطقي.
- نقاش الرواية التاريخية التي تنظم ما وردنا من وقائع ، ووجهات النظر المختلفة فيها ، هو نقاش واجب لكي ندرك الصورة الكلية ، وهنا فأنا أذكر السردية الموجودة بالفعل عند كثير من أصحاب المواقف المختلفة من الله ، طالما كانوا عالمين

بالتاريخ العربي ، قبل الإســـلام وبعده ، وأشـــك شـــكا جذريا بمعرفة من يتبنى رواية مختلفة عما أعدده من جهة معرفته بتاريخ العرب ، ســواء كان مصدقا أم مكذبا.

- نقاش ما يلزم على الله من صــفات ، نقاش دائر منذ القدم ، ودار بين أكبر الرموز الدينية ، وهو لا يعني أننا نأمر الله وننهاه ، بل يعني أن عقولنا تتحكم في تصـــورنا ، فكما خوطبت من قبل لتسقط تصديقها بصنم ، أو بخرافة ، فهي مطالبة بأن تنزل على الحق دائما ، فتســـقط أي زعم عن الله لا يليق به ، حتى لو كان هذا الزعم أصـــلا مزعوما بين الأصول.

1

اللغة:

ربما تكون لفظة (الله) أكثر اللفظات ترديدا على ألسنتنا ، فهي حاضرة ثقافيا فينا جميعا ، نحن أبناء الأمة العربية ، مهما كانت ديانتنا ، ومهما كانت درجة تصديقنا بها ، حتى من يناصبون الأفكار الغيبيَّة العداء يرددون هذه اللفظة بتكرار هائل ، ومع كل هذا الترداد ، تبقى اللفظة جديدة لا تَخلق من كثرة الردّ ، وإن كان التفسير المعتمد على عالم الغيب لهذه الجِدَّة سهلا ، فالتفسير المعتمد على عالم الأعلام ليس بالسهولة ذاتها.

أسماء الله الأخرى تحمل معانيَ أكثر وضوحا في الذهن ، فإن لفظة الرحيم مثلا صفة مشبهة من جذر

رحم ، والمصـــدر رحمة ، فهي تملك حمولة صـــرفية ومعنويـة واضـــحـة ، وينطبق شـــبيـه هـذا على كـل الأســـمـاء ، بينمـا لا يمكن تفكيـك لفظـة (الله) على النحو ذاتـه ، فلا الوزن الصـــرفي قريـب للـذهن ، ولا الجـذر في متنـاول الخـاطر ، ويغلـب على ظني أن الإنســـان العربي لا يســـتطيع أن يقارب فهم اللفظة دون أن يسـتعين بالمعاجم وكلام السـالفين ، ناهيك عن رهبة المصـــداق ، والهالة العظيمة حول اللفظة ، وفوق هذا كله تعقيدات العقائد المنعجنة في الذات ، فـاللفظـة أدنى للنفس من أي منطق عرفتـه بعـدهـا ، وهي أول ما يســـمعه المســـلم في أذنيه ، وليدا يؤذن في أذنه اليمين وتقام الصلاة في أذنه الشمال.

أحرف اللفظة (الألف ، واللام ، والهاء) أبســط حروف اللغـة العربيـة ، بـل وأظنهـا أبســـط الحروف على الإطلاق ، يندر ندرة شـــديدة أن تجد من لا يســـتطيع تمثل الأحرف نطقا على الصـورة الصـحيحة ، ولابد إن وجـد من لا يتقن هـذه اللفظـة أن يكون ذا قصـــور سمعي ما.

أما محاولة التأصيل اللغوي لهذه اللفظة فصعب ، ومن قصر بحثه على العربية الجزيرية أتعبته ، فالجذر غير معروف إلا أن يكون (أله) ومنه الإله وهو كل معبود ، ومنه الألوهة وهي الشمس ، والفعل أله أي عبد ، وبكسر اللام يغدو بمعنى احتار ، وأله إليه أي التجأ له. ومن اللغويين قلة تردها لـ إل و إيل ، والإل العهد ، واللاحقة إيل في جبرائيل وميكائيل ، هي نسبة إلى الله ، كما قال اللغويين ، وهي في ألسنة عربية أقدم من العربية المعروفة اليوم ، لكن لنلاحظ أنه ما من تصريفات حول فرع لفظة الله فهي تبدو أصلا كأنها جدر بذاتها.

عندما يعالج اللغويين جذرا فإنهم يعودون إلى معاني الحروف ، فماذا لو ذهبنا لمعاني الحروف ، لعل فيها ضالتنا ، ونمر على ذلك باقتضاب شديد ، الألف صوت بصري ، يحمل معنى البدء ، واللام حرف ذوقي يحمل معنى الحركة المتكررة الثابتة الظاهرة ، والهاء حرف شعوري يحمل معنى التجلي ، فهل نبني على ذلك فهمنا للفظة الله على أنها بدء لكل ما يبصر ، كائن على نحو ثابت حي متحرك تدركه الذائقة ، يتجلى في باطن الشعور! لا أعلم! فجمع معاني

الحروف على بعضـــها بعد انتقاء معنى لكل منها من معانيه المتعددة أمر عسير ، وقد يداخله الهوى !

وقد اقترح علي صـــديق في مجلس قبل ســـنوات أن اللفظـة مركبـة من مقـاطع مـدمجـة ، أي أنهـا منحوتـة نحتـا ، فـاقترح أن الألف لام للتعريف ، واللام ألف للنفي ، والهاء هاء كهاء الضـمير والتنبيه حرف بمعنى التعيين ، وحينها تكون الـــــ-لا-هو أي المعروف غير المعيَّن! ولو أن كلامـه رائق إلا أنني أســـتبعده! وهو بعكس فكرة معاني الأصـــوات لا يجيب عن ســـؤال لماذا تفخم اللام فيه دونا عن غيره! لكن من يدري !

من المهم أيضـــا التعريج على أن اللفظة تبقى جديدة بتجدد مصـداقها ، أي ما تصـدق عليه اللفظة ، ولفظة الله لها مصداق يتجدد في وعي سامعها كلما سمعها ، ويكون في كل مرة في طور التشكل ، إذ ما من تصور لمصداق الكلمة ، إذ أن الله ليس كمثله شيء ، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، وهذا الاعتقاد وحده كفيل بجعل اســـم الله اســـما جديدا في الذهن لا يبلى ولا يلحقـه الملـل ، وإذا أضـــفنـا هـذا لعـدم وجود جـذر

معروف كجذور أسـماء الله الأخرى ، أي اسـتدعائها لحمولة معنوية واضـحة ترتبط بصـفة محددة نعرفها بيننا في عالم الأعلام ، ينفك السـر الدنيوي للهالة حول هـذه اللفظـة ، وتبقى الأسـرار الأخرى رهن معتقداتنا المختلفة .

2

اسم الله

تقترح اللسانيات أن المصاديق (جمع مصداق وهو ما يصدق عليه الاسم أي الشيء ذاته إن كان الاسم لشيء بعينه مثلا) سابقةٌ على الأسماء ، وهنا لنكن أكثر دقة ، فالكلام عن المصاديق التي ندركها ، إلا أن اسم الله اسم لمصداق لا ندركه بحواسنا ، أي أننا فضلا عن أننا أمام مشكلة بحثية تضع الإسم قبل المصداق ، لا نستطيع عند التعامل مع اسم الله أن نشير لكيان معيّن بذاته ونتأكّد أننا نعني الشيء نفسه .

حسنٌ ، هذا يعني بالضرورة أننا بحاجة للوصف المركب ، الذي يمكننا أن نتحدّث حول الله ، حتى نتأكد أننا نقارب المفهوم بطريقة مشابهة ، وهنا نحن

أمام معضلة ألسنية أخرى ، فالأوصاف في حدّ ذاتها نصوص ، ينتابها ما ينتاب النصوص من سوء فهم ، وأنها قد تعني معانيَ مختلفة في الأذهان ، لكن سياق الكلام فيه مندوحة عن أن نظنّ أننا نتحدّث عن مصداق مختلف تمام الاختلاف!

وعصب القول هنا أن الكلام الذي يصف الله غدا في حدّ ذاته مسكوكاتٍ لغويةً ثابتة ، جمود هذه المسكوكات بسبب التعامل الخاطئ مع الهالة القدسية التي تحيط باسم الله ، تسبب في أننا بتنا لا نتحدّث حول الله بطريقة عفوية من إنشائنا ، وهذا وحده يجعل وجود السياق غير كاف لنعتقد أننا نتحدث عن المصداق نفسه في أذهاننا ، بل إننا نتداول هذه المسكوكات من آيات وأحاديث منسوبة للرسول ، بشكل ينتزعها من سياقها ، فالسياق بحد ذاته غائب.

وحتى نتكلّم في الله كلاما يرقى لمنزلة الكلام ، أي أنه يكلم الذهن ويجترح فيه معانيَ حقيقية ، لابدّ لنا من الحديث العفويّ بلغتنا ، كما يتأكد الأستاذ من فهم

طالب للنص من خلال طلبه له أن يعبّر بلغته هو ، ولا يكتفي باجترار ما حفظه عن المفهوم قيد الدرس.

وأعتقد أنني كفيت ما أردته من القول ، لكن يبقى أنّ نناقش الموانع التي تحبس الناس عن الحديث في الله بلغتهم ، فهل هي شيء آخر غير أسباب جمود الذهنية العربية الإسلامية في عموم ما يتعلّق بالديانة أو بالنصوص الدينية! أظنها هي هي.

ولي مع عوامل هذا الجمود وقفات سابقة ولاحقة. وحتى ذلك الوقت أتمنى أن تحاولوا في الله حديثا من إنشائكم دون أن تتورطوا في اجترار ما حُفّظنا صغارا!

تحدثنا في القسمين الأول والثاني عن لفظة الله لغة ، ورأينا أنه لا مناص من الحديث عن الله بلغة عفوية من إنشـــائنا كي نتأكد أننا نعني المصـــداق نفســـه ، فالكلام القديم غدا مســـكوكات تعاد دون أن تفيد معنى آخر غير ما تخيله أبناء كل فرقة ومذهب وديانة عن ربهم ، بل وكل فرد منهم على حدة ، باســـتخدام تلك النصوص المسكوكة التي لا سبيل إلى التأكد من وجود فهم مشترك لها .

الأسماء الحسنى

من أســـماء الله في النصـــوص المرجعية الإســـلامية: الحق ، العدل ، الحيّ... وغيرها ، وكل هذه الأســـماء لها معانٍ موضـــوعية غير معناها الدال على الله ، فالحق كلفظة تدل على مدلول مشـترك في الأذهان ، والعدل كذلك ، وبهذا فهذه الأســـماء هي التي تحدد

مصداقا للفظة الله في الأذهان ، لكن تدخل شروحات "الشـــيوخ" أضـــر بهذه المُكنة ، فتجد دوما شـــروحا مختلفة لها عند أهل كل عقيدة مختلفة ، مع أن هذه اللفظات لفظات عربية تكتســـب معناها من اللغة لا من العقائد!

إذًا نســـتطيع أن نرجع إلى قيمة كل اســـم من هذه الأســماء ، وكل معنى يشـير له ، ونجمعها في سـبيل التوصـل إلى مصـداق اسـم الله ، ولكن الأسـماء هذه في حد ذاتها مختلف عليها ، ولكل رأيه فيها! فهي إذاً في أحـايين كثيرة فرع عن مفهوم الله في أذهـان النـاس ، وليســـت أصـــلا لـه! ولـذلـك فنحن نرجع للمشـــترك المتقـاطع من أســـمـاء الله في العربيـة ، فنسـتبعد الأسـماء المختلف عليها ، فلا نعتد بأسـماء يدعيها بعضـــهم مثل "البالغ" ، ولا "الدهر" ، ونبتعد عما لفظه العرب من أسـماء لله مهما شـاعت من مثل "الضـارّ" و "المُذلّ" ، فهل رأيت من يسـمي ابنه عبد الضار أو عبد المذل!

لكن منهج العرب القدماء في تحديد هذه الأسماء منهج لم يفض لاتفاق ، فما سبب السعي لهذا التحديد؟ نعم هو رواية منسوبة للرسول ، ليست يقينية ، تقول "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة" ، فاجتهد الناس وأصابوا حينا وأخطأوا أحيانا ، واختلفوا واتفقوا ، بيد أن مصدر هذا الفرض ليس الحديث وحده بل آية في القرآن تقول: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (الإسراء:110). فهل مدلول هذه الآية هو ما فهم القوم؟ فجعلوا يحصون الصفات الواردة عن الله في القرآن والسنة ، نازعين هذه الصفات من سياقها فاختلفوا أيما اختلاف!

والسؤال عن مدلول الآية السابقة سؤال محوري ، وهي ـ في رأيي أنا والذي تعضده اللغة ومناسبة النزول ـ لها دلالة مختلفة جدا عما يتبادر لذهن الناس ، فهذه الآية نزلت وأهل اليمامة يعتقدون بخالق يسمونه الرحمن ، وأهل مكة يعتقدون بخالق يسمونه الله ، وكل منهم ينكر على الآخر الاسم الذي يعتقد به نظيره ، فقال القرآن أنه لا فرق بين الاسمين ما دام المسمى واحدًا ، وأضاف في موضع آخر في آية

منفصلة عن هذه قائلا: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) (الأعراف:180)، ونهى عن الإلحاد بأسمائه في موضع آخر، لكنه في كل المرات لم يحص أسماءه، واكتفى بوصفها أنها الحسنى، وهكذا يكون المعنى هو أن أي اسم يسميه الناس للخالق من أسماء متفوقة في حسنها فهو من أسماء الله الحسنى، ومنها ما عرف فذكره القرآن صراحة غير مقرون بسياق محدد، يضر بمعناه أن ننتزعه من سياقه.

وعلى ذلك إن وجدنا شعبا يعتقد بخالق واحد يحص خلقه على ما يحض عليه الله المسلمين، وتتقاطع صفاته مع صفات الله في القرآن، فهو الله، مهما كان ذلك الشعب يسميه، ويكون اسمه عندهم من الأسماء الحسنى! ويكون الإلحاد باسمه هذا من المنهي عنه قرآنا، نهيا واضحا قاطعا، فهذه هي حال أهل اليمامة وحال أهل مكة، وإذا تناظرت الحالات فلا يؤدي اختلاف الأقوام أو الأسماء إلى اختلاف طريقة النظر فيها.

كل ذلك ينتهي إلى أن موضـــع نظرنا يجب أن يكون مدلولات الأسماء ، لا الاختلاف على إحصائها ، والأهم أن هذه الأســـماء هي فرع عن مصـــداق اســـم الله ، والأصـــل هو المفهوم من كلمة "الله" ، ولهذا فيجب أن نســـبر أغوار مفهوم الله في قلوبنـا وعقولنـا ونصـوصـنا ، ونتحدث فيه حديثا من إنشـائنا لنتأكد أننا يقع في قلوبنا المعنى ذاته للاسم.

4

مفهوم الله

رأينا في الأقسام السابقة أنه لا مناص لنا من الحديث المركب حول مفهوم الله ، لكي نفهم أو نتأكد من كوننا نفهم المفهوم نفسه عن الله ، ولا مناص من أن يكون حديثنا عفويا من إنشائنا ، وأعرف أن كلا منا إن تكلم في الله كلاما جاء بغير كلام غيره ، وما أطلبه من كلامي في الله هو أن أعرض فهمي الشخصي المبني على ما أعرف من لغة وعلم ، لمفهوم الله .

دعونا في البداية نعيِّن بداية حدود خانة الآلهة ، وهنا لا أتحدث حصرا عن الله ، بل عن تلك الخانة الموجودة في أذهاننا نحن البشر ، التي يحتلها إله ما ، أيا كان ، ولكي نتلمس حدودها فلابد لنا من

خلفيـة تـاريخيـة ، وقليـل من التجريـد ، والعنـايـة بوظائف المفاهيم لا بالمفاهيم ذاتها .

فكرة عالم الغيب وكل ما وقع فيها من مفاهيم هي فكرة ماورائية "ميتافيزيقية" ، وهذا يشـــمل مفهوم الإله عموما ، وهكذا فهي تكون فوق ما يمكن إدراكه ، في القرآن مثلا (ليس كمثله شـــيء) فهو غير كل ما نعرف في عالم الشهادة ، وهو أيضا لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، أي أن حدود مفهوم الله تبدأ بعد حدود مفهوم عالم الأعلام ، أو عالم الشـــهادة ، فهو وراء ما ندرك ، وليس ضمنه .

لو افترضـــنا وجود شـــخص تاريخي بيننا ، نجحت في نقله آلة الزمن إلينا ، وكان مؤمنا بمجموعة كبيرة من الآلهة ، وســـألناه عن بعض آلهته ، ســـيقول مثلا: إن الإله الفلاني مســـؤول عن المطر مثلا ، فإذا حاورناه أكثر وبينا له أن المطر ينزل بســـبب تكاثف بخار الماء ، ســـيقول: إن هذا الإله هو الذي يجعل الماء يتكثف! فلو قلنا له: إن بخار الماء يتكثف بســـبب برودة الجو ، سيقول: الإله الفلاني هو من يجعل الجو

يبرد! وسنمر حينها على تفسير الطقس والمناخ وحركة الغلاف الجوي وحركة الأرض ، فيقول لنا: إن إلهي مسؤول عن كل هذا! فنبدأ بشرح أسباب حركة الأرض وقوانين نيوتن والنسبية وغيرها ، فيقول: نعم نعم وهذه هي الطريقة التي رأى بها إلهي أن ينزل المطر ، فسن كل هذه القوانين لكي ينزل المطر ، ونمضي هكذا إلى أن نرى ونريه أن السنن الكونية تقلّ وسيقل معها عدد آلهته ، فسيتوحد الإله المسؤول عن الريح مع المسؤول عن المطر وهكذا... حتى نصل لإله واحد قرر المبادئ الكونية التي تتعدد تمظهراتها ، وهذا الإله سيبقى حاضرا في وعي هذا الشخص ، بل وفي وعي معظمنا ، لكنه خارج دائرة معارفنا ، أي أن عالم الآلهة يبدأ عند انتهاء عالم الشهادة ، وبما أنه خارج عالم ما نشهد وما نعلم أي خارج عالم الأعلام ، فهو في عالم يبدأ عند حدود جهلنا .

وبغض النظر عن البراهين التي نسوقها لإثبات وجود هذه الخانة ، أي عالم الغيب ، وأننا نسوق براهيننا مستخدمين ما نعلم ، فهي كخانة تقع ضمن ما

نجهل ، يســـتلزم وجودُها في وعينا شـــيئين مهمين سابقين على الاعتقاد بها ، هما:

- إقرارنا بأن ثمة ما نجهله أصلا.

لأننا في تلك اللحظة التي نجد فيها تفســـيرا لكل شيء ، وتتسع دائرة معارفنا لتبتلع دوائر جهلنا كلها ، لا يبقى ثمة مكان في وعينا لعالم الغيب كله فضـــلا عن الآلهة ، أو الإله الواحد.

- أن نعالج فهمنا لما نجهل بناءً على ما نعلم.

لأننا في تلك اللحظة التي نتوقف فيها عن تخيل ما جهلنا بناءً على ما نعلم ، ســـنملأ دوائر جهلنا بالفراغ المطلق ، فكل براهيننا لا يعود لها عمل في العوالم التي نقرُّ بأنها قد تختلف عن عالمنا تماما ، فلا تعود النتيجة محتاجة لســـبب ، ولا يعود ثمة قبل وبعد ، وتنتفي كل قوانين وعينا.

ولأننا بالفعل لم نعرف كل شـيء ، ولأنه لا سـبيل لنا للتعامل مع ما نجهل سـوى قياسـه على ما نعلم ، فلم

تزل خانة عالم الغيب حاضـــرة في وعينا ، وأظنها ستبقى حاضرة ، وسيبقى في وعينا متسع للآلهة ، أو على الأقل لإله واحد.

5

بعد أن مررنا على اســـم الله في اللغة ، ومفهوم الله ، ومفهوم الأســماء الحســنى ، وعرفنا أنها حســنى لأنها أسماؤه ، وليس لأن له أسماء أخرى أقل حسنا ، بدأنا نتكلم في مفهوم الله ، وتكلمنا في خانة الإله عموما ، ووصـــلنا لكون محلها هو عالم الغيب ، وأن الاعتقاد بهـذا العـالم غير ممكن دون أن نقر بمحـدوديـة معارفنا ، وأن نقبل قياســنا ما نجهل على ما نعلم ، بعد أن مررنا على كل هذا يحسن بنا أن نناقش قابلية العقـل للاعتقـاد بـه وننطلق في طرق جـديـدة نحو مفهوم الله .

البرهنة على الله

دأب المصدقون بعالم الغيب وخصوصا فكرة الخالق على سوق البراهين على فكرة سموها "وجود الله" ، ولي تحفظ لغوي على المصطلح ، فقولهم بوجوده أو أنه موجود ، يضعه إعرابا في خانة اسم المفعول الذي وقع عليه فعل الإيجاد ، وقلة منهم فقط ينتبهون لذلك لكن اللغة لا تسعفهم في لفظة تجنبهم هذا المطب ، ولهذا سبب موضوعي يتعلق بكون اللغة وسيلة تواصل إنسانية ، معنية بما هو مدرك إنسانيا ، ولأن الإله غير مدرك فلا سبيل للكلام فيه دون التسامح مع مثل هذه الإشكالات .

هذه البراهين على أن ثمة خالق أخذت أشكالا عديدة ، وتنوعت تنوعا بسعة طيف الوعي الإنساني منذ القدم وحتى يومنا هذا ، لكن أغلبها لفظه العقل الإنساني من خلال تدافع الأديان ، ومن خلال تطور الفلسفة ، وبالتأكيد من خلال تطور العلم والمنطق ، ولا أحسب أن ثمة براهين قاهرة تلزم كل عاقل على الاعتقاد بفكرة الإله الخالق ، وهذا له دليله الديني في كل الأديان فضلا عن التدليل بالفحص والتمحيص .

أما الدليل الديني على أن العقل غير ملزم بالاعتقاد بفكرة الإله الخالق ، وهو ما يحسن بي البدء به تفاديا أن يظن أن تمحيصَ الأدلة المعتبرة هو مجرد تطاول ومحاولة نفي لها ، فهو أن كل الأديان التي تتوعد المنكر لما جاء فيها بالعقوبة ، تقرُّ من حيث تدري أو لا تدري بأن أدلتها غير قاهرة ، إذ فكرة العقوبة والجائزة تنطوي على محاسبة للإنسان على إرادته ، لا على ما يلزمه به عقله قسرا ، فمن عجز عقله عن فهم الحق الذي تدعيه هو بالضرورة معذور ، فالخالق لم يمنحه عقلا قادرا على التصديق به! وكذلك فلا فضل لمن قهرته البراهين فى التصديق بشيء!

لكن توسل الأديان ولاسيما الإسلام والمسيحية للعقل ، وتوصلها إليه ، حاضر بالفعل في الخطاب الديني ، فهل كانت تحاول في غير مجالها! الحقيقة أن البراهين التي تساق في النصوص الدينية هي براهين بلاغية ، وليست براهين عقلية ملزمة ، ودون قرائي من المسلمين عمروا بن هشام (أبو جهل) ، فلينظروا هل يطعنون بفهمه للقرآن وهو العربي الصميم ، أم يطعنون في عقله ومروءته ويروون عن النبي قوله: "اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين" ، فإن

وجدوا سـبيلا للالتفاف على ذلك ، فهل يطعنون بعقل من تأخر إسلامهم رغم بلوغ الدعوة لهم مبكرا ، وهم من الجيل الذي يقدسـون من الصـحابة! فهل كانوا أغبياء ثم صـاروا أذكياء فجأة! أم كانوا مجانين وعقلوا!

أما البراهين التي تسـتحق التمحيص فهي قليلة ، إذ إن العارفين بالفلسـفة والمنطق والعلم يعرفون أن البرهنة على وجود الأشياء التي نلمسها ونحسها تبلغ من الصـعوبة ما يبلغها درجة المسـتحيل ، وأن المعرفة التي نملك ، وهنا أتحدث عن كل معرفة ممكنة لنا حتى اليوم ، لا تبلغ درجة اليقين الذي لا يمكن للعقل التشـكيك فيه ، وكل ما نملكه من معارف تأتي شـرعيته من كونه أفضـل ما لدينا ، لكن لنعترف أننا نقرن العقل بهذه المعارف ، ولذلك فاستحالة البرهنة على المحسوس لا تعفينا من نقاش البراهين على فكرة الإلـه الخالق ، وتمحيص هـذه البراهين التي تقدم على أنها قاهرة جامعة مانعة أمر لابد منه في كلامنا في الله.

6

مررنا من قبل على فكرة البرهنة على الله ، وعرفنا أنها مما تقر الأنظمة العقدية باستحالته ضمنا ، إذ تجعل الإرادة الإنسانية محل قبول المعتقد ولا تقول بأن براهينها البلاغية قاهرة للعقول ، وإن كان ثمة من يدعي هذا من كهنة الديانات وفلاسفتها ، فهو حر بدعواه ومطالب بإثباتها ، ونحن هنا نناقش حجج هؤلاء وما ظنوا أنها براهينهم ، ولا نناقش البراهين البلاغية التي في النصوص المرجعية الدينية.

البراهين على الخالق

ثمة ثلاثة براهين على الخالق تستحق عناء النقاش والنقد وربما النقض ، لكن سواها مما يزعم أنها براهين قد لفظته العقول الدينية والمنطقية ، وقضى

نحبه في تدافع الأديان بعضـــها ببعض ، ولم يعمَّر ليشهد نقاشنا هذا ، فلا داع لنقاشه ، أما هذه البراهين التي ســـنناقشـــها هنا ، فما زالت تتردد في مناظرات أهل الديانات مع الملحدين ، فلابد أنها تســـتحق التوقف والنقاش ، وهنا لا أريد حصـــر الأمر عليها ، ولكن هي البراهين القابلة للنقاش فيما أعلم.

أولا: برهان التصميم الذكي

وهو باختصار شديد قولهم بوجود نظام دقيق مركب معقد للكون لاســـيما للأحياء من حولنا ، لا يمكن للصـــدفة أن تؤســـســـه ، وأننا نســـتطيع خلال تأملنا للنظام أن ندرك أن ثمة شـــكلا من أشـــكال الذكاء الفائق وراء وجوده ، ولابد من غاية وخطة لهذا الوجود ، وهذا يدل على واجد له ، وهذا الواجد متصـــف بالذكاء والقدرة ، ولذلك فالتصـــديق بوجود الخالق مبرر منطقيا.

كانت هذه الحجة متداولة في العصور السابقة ، لكنها اليوم بعد رســـوخ علم الاحتمالات ، وعلم الجينات ، والانتخاب الطبيعي ، باتت أقل قبولا عند الإنســـان

الحديث ، فثمة تفسير لكل ما يظهر على أنه نظام ذكي ، وهو أن كل ما حدث هو أحداث محتملة إحصائيا ، وهذه السلسلة من الأحداث ممكنة بالفعل ، وهي منبثقة من التركيب الأولي للذرات ، المنبثق من القوانين التي تحكم سلوك المادة ، وكل حدث كان هو الأكثر احتمالا ، فمن الطبيعي من وجهة نظر الملحد العاقل أن يكون الكربون هو العنصر الأساس في أشكال الحياة فهو الأقدر على الارتباط بغيره من العناصر ، وتشكيل مركبات أكثر ، وبالتالي من الطبيعي أن تتكون أشكال الوجود الحية منه ، وبعد ذلك تأتي شجرة التطور ، والتي نعلم تماما اليوم كيف تعمل ، وهذا التفاعل سيظهر على أنه تصميم ذكي لنا ، لكنه في الحقيقة منبثق عن الاحتمالات الأكثر احتمالية فقط ، وهذا مما لا يرفضه العقل لذلك ، فهذا الإثبات غدا أقل استخداما اليوم.

والأهم من الغوص في كل ما يقترحه العلم من احتمالات ، أن هذا المصمِّم الذكي ليس بالضرورة أن يكون الإله الذي يرتبط به كل ما يرتبط بالخالق مما تقترحه الأديان ، فمن الجائز منطقيا أن نفترض وجود عصابة فضائية فائقة القدرات صممت هذا التصميم ،

أي أن فكرة الخالق القدير ليســـت لازمة عن فكرة التصـــميم الذكي ، وكل ما يرتبط بالخالق من صـفات وأعمـال يمثـل عبئا على هـذه النظريـة ، التي تقـدم احتمالا وفقط! فهل يسـتحق (التصـميم الذكي) لقب برهان!

ثانيا: برهان العلة الأولى

وهي حجـة عقليـة مجردة ، نختصـــرهـا بقولهم بـأن ملاحظتنا للوجود نحتت في عقولنا قانون الســببية ، وهو أن لكل شـــيء علة أو ســببا ، ولأننا إذا ترجعنا سـلسـلة الأسـباب في أي مرحلة فإن للسـبب الذي سـيقع بين أيدينا سـببا آخر ، وهكذا تكون سـلسـلة الأسـباب لانهائية ، ولأن العقل يقترح بداية لسـلسـلة الأســباب ، بل والعلم يقر بأنـه ثمة بدايـة للكون ، فلابد من سـبب أول يكون هو في ذاته أزليا ، أي غير محتـاج لســبب ، وهنـا تقترح هـذه الحجـة أن هـذا السبب هو الخالق العظيم.

وهـذه الحجـة تتكئ على أنـه لابـد من ســبب أول ، وفرض لازم منطقيـا بـأن يكون هـذا الســبب بلا

مسـبب ، وترفع للذهن سـؤالا طالما سـألناه ونحن أطفال ، إذا كان لكل سـبب مسـبب ، فمن أين جاء الله ؟ والرد المنطقي أن هـذا مخـالف لفرض لازم في الفكرة ، وهو أن السـبب الأول يجب أن يكون بلا مسـبِّب. وليس لقبول هذا مبرر سـوى ارتباك أذهاننا عند هذه الحدود ، وبهذا فنحن نقنع بذلك ونتوقف عن السؤال المتعلق بالأسباب.

لكن السـؤال الذي يرفع تلقائيا ، هو لماذا نقف عند أول سبب معروف لدينا ، ونقول إنه هو العلة الأولى ، سبب كل شيء الذي لا سبب له ؟ ألا يمكن أن نطبق هـذا على الانفجـار الأعظم مثلا ، فنقول هو العلـة الأولى ولا شـيء قبله ، وهو سـبب لا سـبب له! في الحقيقة ليس في حجة العلة الأولى ما يعوق ذلك ، فما الفضـل لفكرة الخالق على فكرة الانفجار الأعظم ، داخل هذه الحجة! ربما لا تقبل أذهاننا أن نتوقف عند شـيء معروف لدينا ، فنختار مفهوما مريحا ، لكن ربما كان غير مريحا لدى عقل آخر ، هذا لا يطعن في عقلانيتـه ، ولا يوجـد في هـذه الحجـة مـا يلزم عنـه الاعتقاد بكون هذا السـبب الأول المجهول لدينا إلهًا عظيما ، يرتبط به ما يرتبط بالخالق من صفات عندنا.

ثالثا: البرهان بالتعريف.

وهو برهان عصـيٌّ على الاختصـار ، لكننا سـنحاول اختصـاره قدر الإمكان ، بقولنا إن إثبات فكرة الإله آتيـة من تعريفـه ، وهـذا غير لازم على كـل تعريف ، فنحن نستطيع تعريف أي كائن خرافي ، لكن تعريفنا له لا يلزمنا بالاعتقاد بأنه حق ، وهنا يأتي الاسـتثناء الخاص بفكرة الإله ، فكل تعريف نقدمه عن أي كائن تخيلي آخر لا يلزمنا بالقبول بكونه كائنا حقا ، إلا أن إدراكنا لكون الحقيقة أفضـل من اللاحقيقة ، واحتواء تعريف الإله الخالق على أنه الكائن الكامل ، الجامع كل فضـيلة ، يلزماننا بالتسـليم بأنه كائن حقا ، لأن كينونته فضـيلة مضـمرة في تعريفه ، وبذلك ففكرة الإله مبرهن عليها من خلال التعريف.

هذه حجة عبقرية ، لكن ثمة شـيء غير مريح فيها ، لا نسـتطيع أن نحدده بسـهولة ، وهي حجة أقل قبولا عند عامة الناس لكونها مركبة ومعقدة جدا ، وهي

متداولة بين أهل الفلسفة حصرا ، لكن ما الذي يجعل عقول العامة تستصعب قبولها ؟ وهنا سنناقشها بحثا عن هذا الشيء الذي يجعلها غريبة.

ربما يكون في الحد الخاص بإدراكنا لأن للكينونة فضلا على العدم ، فهل نستطيع وضع الحجة أمام حالة تطعن في إطلاق هذه القاعدة!

لنفترض أننا نتحدث عن كائن شرير ، الشيطان مثلا ، فهل كينونته أفضل من عدمه! في الحقيقة هذا يكفي لأن تسقط هذه المسلمة المتضمنة فى هذه الحجة. وربما يكون في حد التعريف نفسه ، بكون فكرة الكائن الأكمل الجامع لكل فضيلة ، هي تعريف لا يدل على دلالة واضحة في عقولنا ، وهذا يمكن رؤيته بسهولة إن تحدثنا عن أي من المفاهيم التي ندرك ، وألصقنا صفة الكمال واجتماع الفضائل فيه ، فكما نقول الكائن الأكمل ، نقول "الوجبة الأكمل والأفضل" أو "الحياة الأكمل والأفضل" أو "اللحية الأكمل والأفضل" ، وفي كل العبارات السابقة لا يتبادر لذهننا معنى قابل للإمساك به ، وبذلك فهذه اللاحقة التي تشترط الكمال والأفضلية تجعل أي

شيء ندركه غامضا لنا ، وهنا ربما نفهم لماذا يكتنف هذه الحجة ويلف هذا البرهان غمامة من عدم الرضا ، ثم ما الغاية من كل الخطاب الديني إذا كان إثبات الله يتم بهذه السهولة نظريا!

وهكذا نرى أن البراهين التي ناقشناها ليست ملزمة لكل العقول ، ولا ينبثق بالضرورة عنها منظومة العقائد التي تحتويها الأديان ، ولنكن منصفين فالديانات لم تدع أنها تمتلك براهين علمية وفلسفية ومنطقية قاهرة للعقول ، وهي تضع إمكانية رفضها عقلانيا أمامها ، وتعلّق القبولَ بها بالإرادة الإنسانية ، فإن كان موضع التصديق هو العقل ، فخيار التصديق خيار إرادي ، ولا يأتي بقهر البراهين للعقول ، وإنما بالتسليم النفسي الاجتماعي بدعوى الأديان.

7

ناقشنا في الحلقات السابقة عدة مواضيع ، كلها يدور حول الله ، اسما ومفهوما ، إلى أن بلغنا البرهنة على التصديق بالله ، أو بالخالق العظيم أيا كانت تسميته ، فناقشنا فكرة البرهنة في ذاتها ، ووجدنا أنها فائضة عن حاجة الاعتقاد حسب النصوص الدينية المرجعية ، ولما ناقشنا البراهين الأشهر رأينا بالفعل أنها غير ملزمة ، ويمكن للعقل ألا يستجيب لها دون أن يطعن بكونه عقلا ، والآن ننتقل إلى الجهة المقابلة ، أي بماذا يبرر غير المصدقين بخبر الغيب عدم تصديقهم به ، لنرى إن كانوا يملكون برهانا ملزما للعقل على تكذيب خبر الغيب.

الحجج المضادة

عدا عن الحديث حول الانطباع عن فكرة الاعتقاد بالغيب ، ونقاش تاريخ الأديان وكيف تسببت في اقتتال الناس ، وغيرها من الأمور التي يناقشها غير

المصـــدقين لخبر الغيب ، والتي أنا غير معني بها الآن ، فهم يقدمون حجتين مهمتين ضد فكرة الخالق العظيم يجب نقاشهما هنا.

أولا: أصل الشرَّ!

والفكرة هنا أن الاعتقاد بخالق قادر متصف بالفضيلة ، يتناقض مع وجود الشر في هذا العالم ، فإن كان كل شيء يرجع لخالق واحد ، وكان هذا الخالق خيِّرا وقديرا ، فمن أين تأتي الشرور ؟ وهنا السؤال ليس فقط عن الشر الإنساني بل حتى عن الكوارث الطبيعية ، فلابد أن ثمة خللا ما في الاعتقاد بالصورة التقليدية لإله عندهم ، فافتراض القدرة والخير والكينونة الدائمة للإله تضع المصدقين به أمام سؤال: لماذا لا يتدخل إلهكم لمنع الشر إذًا ؟ فلو كان هو المصمم العظيم فاللائمة تقع عليه بوجود خلل في تصميمه ، ولو كان باقيا دائما فلماذا يقبل بأن تُحدث إرادةٌ غير إرادته الشرور! ولو كان باقيا وقادرا على منع الشر ولم يمنعه ، فلماذا تؤمنون بكونه خيِّرًا! ألسنا ندين قانونا من يقتل بالامتناع عن تقديم العون الذي يقدر عليه للمقتول!

هذه المرافعة تفترض وجود الشـــر وهو ما يمر مرور الكرام ، وترد على الفكرة التقليدية عن الإله الواحد ، والتي ليســـت بالضـــرورة فكرة الجميع عنه ، وتتواطؤ على قياس الغيب على الشهادة ، فتقيس الفضيلة في عالم الغيب على الفضيلة في عالم الأعلام ، وكل هذه الأمور مبررة لهم من وجهة نظري ، فهم يشـــيرون إلى عدم اتساق موجود بالفعل عند من يجادلونهم.

ولي تحفظاتي على الفكرة ، وإليكم شرحها باقتضاب: الشر والخير هي أمور اصطلاحية انطباعية في نظري وليس لها وجود حقيقي ، الثنائية الحقيقية التي أراها أكثر قابلية للفهم هي ثنائية (العدل والظلم) ، والعدل هو وضع الشيء موضعه ، أما الظلم فوضع الشـــيء في غير موضـــعه ، وهنا نحن أمام أحداث نجمت عمَّا يفترضـــه المصـــدِّق بالغيب عدلا أولا ، احتوى على إمكانية الظلم فيه ليكمل كفضـــيلة ، فوجود الظلم لازم عن وجود العدل ، وبدونه لا يكون العدل فضـــيلة! وهذه الثنائية لا تتفق مع الرؤية التقليدية للعالم فلا وجود للشر فيها كوجود حقيقي ، ثم من قال أن كل المصـــدقين بعالم الغيب يتبعون

الصورة التقليدية للإله التي تراه يتدخل في كل كبيرة وصـــغيرة في الكون! هذا غير دقيق ، ويبقى أخيرا أن قياس الغيب على المشـــاهدة ، وافتراض مقاييس واحدة تحكم الفضـــيلة في عالم لا نعرفه ، ينم عن جمود في النظر لشـــقي الكلام كليهما ، جمود النظر إلى الفضـــيلة ، بكونها شـــيئا محددا جامدا ، وجمود النظر إلى عالم الأعلام الذي نعاين ، فالعلم ما زال يجبرنا على كســـر كل برادايم تخيلناه عن الكون وكيفية عمله.

لكن هذا يجب ألا يمنعنا من الإقرار بوجاهة الطعن في اتساق تصور كثير من المصدقين بخبر الغيب ، طبقا لما فهموه عنه ، لكنني أزعم أن وعيا منفصلا عن الوعي الديني الشـــائع ، مســـؤول عن تســـويغ فكرة التصـــديق ، ينكفئ على ذاته ويترك وعيا آخر يصـــيغ الخيال المطعون فيه عن الإله الواحد ، وهو الوعي الشـــقي الذي لا ينفك يأتي بتصـــورات لا تحقق الاتســـاق ، تســـاهم مثل هذه الحجج بالتخفيف من غلوائه إذا عقلها المصـــدق بالغيب ، ولم يهرب للتطرف أكثر.

ثانيا: عدم كفاية أسباب التصديق.

تقول الحجة هنا إنه بما أن التصـــديق يفتقر للبرهان الملزم بـالاعتقـاد ، فمـا من ســـبب وجيـه يـدعو غير المصــدق للتصــديق ، وهذا حق ، كما رأينا في قســم سابق ، لكننا وضحنا أن خطاب الأديان لا يفترض في عمومه وجود هذا البرهان القاهر ، ويدعو لخيار إيمان إراديّ ، يكون خليقا بالمكافأة وبعدِّه في الفضـــائل ، ولذلك فهو يرفض فكرة البرهان القاهر من أسـاسـها ، وهنا يعود الملحد ليقول: ولكن دعوة تصـديق شـيء غير عقلاني ، هي في الوقـت نفســـه دعوة لترك العقلانية!

هنا يحســـن أن ننتبه إلى أمر مهم ، وهو أن العقلانية تقتضـــي أن نعتنق مبـدأ علميـا مهمـا وهو "هـامش اللايقين" ، ولـذلـك فمـا يســمونهـا دعوة لترك العقلانيـة ، هي دعوة للتواضـــع أمـام هـذا الكون المدهش ، وهـذه اللاعقلانيـة لهـا هـامش محدد عند

العقلانيين من المصـــدقين بـالغيـب ، الهـامش هو الغيب ، وتكون دعوى الملحدين على ذلك حقيقية ما دامت في إنكار اللاعقلانية داخل النطاق الذي تعمـل فيـه العقلانيـة وهو عـالم الأعلام ، ونقر لهم بحمق من ســحب هذه اللاعقلانية إلى عالمنا الذي نعيش فيه ، وطبقها على مجال العقلانية! فالمشـكلة ليســت في فكرة الإله ، بل في تعامل المصــدق مع كل الأفكار الملتصــقة بالإلـه بالطريقة ذاتها التي يتعامل فيها مع فكرة الإله.

يبقى أن الفضــيلة ليســت مبادئ مطلقة ، وأن كثيرا من الملحدين يعتنقون هذا التصــور عن الفضــيلة ، فســحب الفضــيلة البشــرية المتعلقة بالثقافة المجتمعية لمجتمع ما في زمن ما على عالم الغيب ، ليس شــيئا عقلانيا تماما ، مع الاحتفاظ بحق الناس في التصــديق الإرادي ، طـالمـا لم يجعلهم هـذا التصــديق كائنات تكذب عالم الشــهادة ، وتنكر ما يـدركـه الحس والملاحظـة ، وتحتفظ بحق غيرهـا في خيارهم الإرادي بعدم التصديق.

وصـــلنـا إلى كون التصـــديق بـالغيـب وأي إلـه فيـه _حسب ديانة الشخص_ خيارا إراديا ، لا يمكن قهر العقول عليه ، وكذلك التكذيب به ، إذ ما يسـاق على أنه براهين على صـــدق هذا أو كذبه ليســـت براهين نهائيـة لا يمكن ردهـا ، وبمـا أنـه خيـار إرادي فننتقل إلى الحجج التي ســيقت لتقريب هذا الخيار للإرادة الإنسانية ، وسنتناول أشهرها فيما أعلم.

رهان باسكال

وهي حجة لها الكثير من النسـخ ، أشـهرها وقد يكون أولها ما جاء به العالم باســكال ، لإثبات أن خيار التصـديق بالإله خيار أفضـل من حيث الاحتمالات ، مهما كانت حقيقة الغيب الذي نقر بأننا لا نعلمه علم اليقين ، نشرها باسكال ومنذ ذلك الحين لاقت نقدا وردودا كثيرة ، لكنها لاقت أتباعا كثيرين أيضـا ، وهي رائجـة جـدا ، لاســيمـا بتحويراتهـا التي ينقلهـا رجـال الـدين في كـل الـديـانـات دون نســبتهـا بـالضـــرورة

لباسكال ، وحجة رهان باسكال يمكن اختصارها كما يأتي...

أمام مسألة كون الإله الواحد حقيقة أم لا ، فنحن أمام خيارين إما التصـــديق به ، وإما التكذيب به ، وهكذا فنحن أمام أربع حالات محتملة حسب مبدأ العد:

الأولى- أن يكون الإله حقيقة وأن نصـــدق به ، وهنا نحصل على النعيم اللانهائي.

الثانية- أن يكون الإله زيفا وأن نصـــدق به ، وهنا نخسر قليلا من شهواتنا في الدنيا.

الثالثة- أن يكون الإله حقيقة وأن نكذب به ، وهنا نحصل على خسارة فادحة هي العذاب اللانهائي.

الرابعة- أن يكون الإله زيفا وأن نكذب به ، وهنا نربح قليلا من شهواتنا في الدنيا.

وأمام هذه الاحتمالات يكون خيار باســكال الأقرب للعقلانية أن نصدق بالإله ، لأننا أمام خيارات تضعنا

بين مكسب محدود وخسارة غير محدودة ، إن كذبنا به ، وتضـعنا أمام مكسـب غير محدود لقاء خسـارة محدودة إن صـدقنا به ، فالخيار الأقرب للعقل أن نختار التصديق.

النقد والردود المشهورة

رهان باسـكال يفترض أن الاحتمالات من جهة عالم الغيب مقصـورة على احتمالين ، هما كينونة إله واحد هو إله ديانة باسـكال ، أو عدم كينونته ، ولا ينظر إلى الاحتمالات اللانهائية بكينونة عدد كبير من الآلهة أو الكائنات الفائقة القدرات ، أو كينونة أي إله آخر غير إله باسكال وحيدا ، وهي خيارات لا تعد ولا تحصى ، وبهـذا فهو يحوي مغـالطـة تحـديـد الخيـارات غير المحدودة.

لابـد من التنويـه أيضـا إلى أن رهـان بـاسـكـال لا يستجلب اليقين ، وهكذا فإن التصديق الذي يسوِّقه تصـديقٌ منبوذ من وجهة نظر الديانات ، فالخيار الإرادي ليس تصـديقا تماما ، وهذا مما لن يكافأ عليه

المصـــدق بالإله ، وبهذا فهو رهان ضـــعيف من وجهة نظر المصدقين.

رهان الملحد

نبدأ برد طريف على باســكال للكاتب الســاخر (تيري براتشـــيت) يقول فيه: بعد موته ، وجد الفيلســـوف المعني نفســـه محاطاً بجماعة من الآلهة الغاضـــبة ، وكان كل إله منها ممســـكا بعصـــا غليظة ، وآخر ما ســـمعه كان "ســـنريك ما نفعله هنا بالأذكياء المتحذلقين من أمثالك".

جاء هذا الرهان كردٍّ على رهان باســـكال ، وهو يقول: نحن أمام عدد لا نهائي من الآلهة الممكنة الكينونة ، المتضـــاربة الأوامر ، لذلك فإن التصـــديق بأي منها ، يحوي الخطر نفســـه بالخســـارة ذاتها ، وهذا يجعل المكســـب المحدود في الدنيا أكبر المكاســـب نظرا لوزنه الأكيد بالرغم من محدوديته.

طبعا لا يمكن فصـــل رهان باســـكال ولا الرهانات المقابلة ، ومنها رهان اللاأدري وهو الذي يمتنع عن

اختيار التصديق أو التكذيب ، عن أمور كثيرة مضمرة فيها ، ومنها أن العيش دون التصـــديق بإله يحتوي على مكاســب دنيوية ، وأن التصــديق بالإله يحتوي على مخاسر دنيوية ، وأن التصديق ينتج نعيما أخرويًّا غير محـدود ، والتكـذيـب ينتج عـذابـا أخرويًّـا غير محدود ، وهذا مما لا يلزم أصــلا عن فكرة الاحتمالات ذاتها ، وأن التصـــديق والتكذيب كلاهما يمكن أن يتمَّـا وهمـا يبنيـان على الإرادة الإنســـانيـة ، لا على القناعة العقلية الصلبة.

وتهمل كل هذه الحسابات مسألة ثقافية مهمة ، وهي أن الـديـانـات بطبيعتهـا اجتمـاعيـة لا فرديـة ، وأنهـا غرســت عميقا في وعي أبنائها قبل أن يقوم لعقولهم أي منطق يختارون به ، ولهذا فإن ثمة مخاسر دنيوية مترتبة على التكذيب ، ومكاســب دنيوية مترتبة على التصـــديق ، يحصـــدهـا الأفراد في جمـاعـاتهم ، ويحصدونها أيضا عميقا في نفوسهم ، إذ يرتاحون من صــراع التناقضــات ، وهكذا فما يزال رهان باســكال عاملا في وعي الناس!

ناهيك عن أن الديانات بممارساتها تعيد برمجة العقول عن طريق التكرار الهائل ، خذ التسبيح في الإسلام مثلا ، فمن يقبل رهان باسكال مرة واحدة فهو خليق بألا يعيد التفكير في الأمر مرة أخرى ، ولذلك فما يزال رهان باسكال في مكانه على ألسنة الناس أثناء دعوة غير المصدق للتصديق ، لكنه ليس فكرة مؤسِّسة حقيقية لخيار التصديق ، وإنما عضيدة لها فقط.

هذه كانت أشهر الأفكار التي تقرب خيار التصديق للإرادة الإنسانية ، ورأينا وزنها المساوي في الحقيقة لوزن نقائضها ، وبقي أن نخصص الكلام عن الله في الإسلام ، ونسهب في تاريخ فكرته ، وفي واقع طلبه طبقا للنص المرجعي (القرآن) ، وفي ماهية الخيارات المطروحة أصلا أمام العقلاء هنا.

مررنا في الأقسام السابقة على جوانب شتى لمفهوم الله ، وعرفنا أن الاعتقاد فكرة ، وأن الأفكار محل التداول والنقاش ، ولا يمكن فرضها على أحد ، إلا أن نفرض النفاق بشأنها عن طريق القوة المفرطة ، وحتى هذه الطريقة هي مجرد فرضية يبطلها التاريخ ، فلم تشكل القوة يوما حائلا دون نقاش الأفكار والمعتقدات ، وعرفنا أيضا أنه ما من برهان قاهر للعقول على قبول فكرة الله ، وما من برهان قاهر للعقول على رفضها ، وحتى المقاربات التي تسوّغ لاعتناق الفكرة لها مقابلها مقاربات تسوّغ لرفضها.

هل الاعتقاد إراديّ!

هذا السؤال الاستنكاريّ يطرحه الذين يرفضون فكرة أن الاعتقاد إراديّ ، من طرفيّ الجدال ، مصدّقين بالله ومكذّبين به ، فيقول المكذّبون مثلاً: إنّه من غير الممكن أن تصدّق إراديًّا أن الكرة الأرضية معلقة بين قرنيّ ثور ، والثور يقف على سلحفاة ضخمة ، وما إلى ذلك من الخرافات! فقط لأنك تريد أن تصدّق

هذا. ويقول المصـــدّقون: إذا كان الحديث بالبراهين غير ممكن لإثبـات الكينونـة لله ، فلمـاذا ينزّل وحيًـا مليئًا بخطاب يحاول إقناع العقول!

هنا نجد التوافق بين المتناقضين ، فكلاهما يعلن أن الاعتقـاد لا يبنى على الإرادة بـل يبنى على البرهـان ، وقد رأينا من قبل كيف أن الديانات في نصـــوصـــها المرجعيـة لم تـدّع أنهـا تقيم حجـة لا يمكن للعقول رفضـــها ، ومن لم يقتنع بما قدّمنا من نقاش للخطاب الديني من جهة ، فدونه نقاش البراهين ونقدها ، ومن لم يقتنع بهذا وهذا فعليه بالتاريخ وليســـأل نفســـه لماذا تقتنع البشـــرية بأفكار قهرت العقل البشـــري ، لكنها تعجز عن الاتفاق على قناعات غيبية محددة ، فإن لم يقتنع حتى بهـذا ، فهو يقرّ أن ثمـة طيفـا من القنـاعـات يعيش فوق الأدلّـة ، وقنـاعتـه هـذه مثـال عليها!

والاعتقاد بالفعل في أغلبه كأفكار يبنى على ما يشاهد وما يقـاس عليـه ، وكلـه من مجـال البرهـان ، بيـد أن الأفكـار التي تخصّ الغيـب تختلف ، فنحن لا نملـك سبيلا لضحدها تماما ، ولا نملك سبيلا لإثباتها تماما ،

على الأقل حتى لحظتنا هذه بالنسبة لفكرة الخالق العظيم الذي نسميه في العربية الله ، لكن ماذا عن ذلك الشق من الفكرة المتنزل على واقعنا ، أي الذي له تجلّ في عالم الشهادة وما يقاس عليها ، أي الذي يمكن فحصه في عالم الأعلام!

ربما شاهد كلّ منا مناظرة بين المصدّقين بالغيب ، وبين المكذبين بصورة اؤلائك المصدقين عنه ، أو بين مصدقين بصورة ما عن الغيب ، وآخرين يصدقون بصورة أخرى عنه ، وكل ذي فطنة يشاهد أيا من تلك المناظرات لابدّ أن يلاحظ انزياح النقاش عن الغيب إلى الواقع ، إلى التاريخ ، أو المستقبل ، فدائما ما يُسأل الملحد مثلا عن رأيه بزنى المحارم! أو يُسأل المسيحيّ عن محاكم التفتيش! أو يُسأل المسلم عن أحاديث من مثل "جعل رزقي تحت ظل رمحي"! أو عن زواج الرسول بابنة تسع سنين!

هذا المنحى الذي تأخذه هذه المناظرات مهم جدًّا ، وهو وإن كان واقعا في خانة المغالطات الحجاجية ، فهو خاص بالجزء الذي يمكن فحصه من الأفكار ، أي بذلك الجزء الخاص بعالمنا ، بواقعنا ،

بمســـتقبلنا ، وهذا لوحده دليل على عقم النقاش في غيره ، لا أدّعي أنني أحصـــيت كل المناظرات ورأيتها تأخذ المنحى ذاته ، لكنني لم أصـــادف في كل ما شـــاهـدت وقرأت ، وهو كثير ، في المنـاظرات بين الديانات ، أو بين المصـــدّقين بالإله والمكذبين به ، لم أصادف في ذلك كله مناظرة واحدة تشذّ عن هذه القاعدة ، وهي أن ((كل مناظرة حول الغيب تبدأ بالواقع وتنتهي إليه!)).

وهذا بالنسبة لي يعني عدّة أمور مثبتة دونه:

• الأهمّ من نقاش أيّ فكرة غيبية هو فحص اتســاق منظومة الأفكار التي تحتويها.

• النقاش عن الغيب هو في أصـــله نقاش عن الواقع وعن الإرادة الإنسانية لهذا الواقع.

• مهمة الأفكار الغيبية هي الاستقواء على الطروحات الواقعية.

وهكذا فإن الكلام في الله لابدّ وأن ينتقل إلى طور آخر ، وهو ما الذي يعنيه لنا التصـــديق بفكرة الله ؟ وما الذي يعنيه لنا تكذيبها ؟ وإذا كان واقعيّا ثمّة ما هو أقوى من اتخـاذ موقف منهـا ؟ ثمّ هـل يتقـاطع المؤديان مع بعضـــهما ؟ أقصـــد مؤدى التصـــديق ومؤدّى التكذيب ، بل ومؤدّى عدم اتخاذ موقف!

لنـا وقفـات بعـد هـذه حول الأمر من هـذه الزوايـا ، مخصـــصـــين الحـديـث عن الغـايـة من الوجود ، وقاصـرين نقاشـنا الذي يتمّ باللغة العربية حول الله وحده ، دونا عن كل الصـــور الموجودة في الأذهان المختلفة عن الإله الواحد.

وصـــلنا بعد لأيٍ إلى أننا يجب أن ننتقل لنقاش أثر مفهوم الإله ، تصـــديقا به ، وتكذيبا به ، وتحييدًا له ، على الواقع ، وأن هـذا هو في الحقيقـة مـا يجـب أن يهمّنا ، بعد أن مررنا في الأقســام الســابقة على كلّ ما أفضـــى بنا إلى حيث نحن الآن ، ولابدّ لنا أيضـــا من قصـر الحديث ليكون حول الله ، فهو الإله الواحد في ثقافتنا ، يبقى أن نحدد أي صـــورة من صـــور الله في الأذهان ستكون موضوع النقاش المقبل.

صور الله في الأذهان

في الحقيقة سـأبدأ برأي غريب ولن أدلل عليه كثيرًا ، وتبقى المعرفـة المتوفرة لـدى القـارئ أن يراجعهـا أو يحصـــلها ، فيصـــلًا للحكم على رأيـي هذا ، وهذا الرأي وراءه مـا وراءه من حـديـث في التـاريخ والعقـائـد ، سـأختصـره كله لأن مكانه ليس هنا ، وسـأنتقل لبيان الرأي ، وهو ((إن الفرق العقديّة في الديانات المختلفة فـرعٌ عـن الاختـلاف عـلى صـــورة الله فـي الـعقـول والثقافات ، وليس العكس)).

أما بيان الرأي فهو الآتي: التصورات عن الله عند الفرق الإسلامية سابقة على الدعوة المحمدية ، وفي كل مكان وصلته الدعوة المحمدية تمّ تحويرها لتناسب أذهان الناس وثقافتهم ، وبقيت صورة الله الموجودة أصلا في تلك الثقافة بشكل أو بآخر على حالها ، لكن جعلت النصوص الدينية دليلا عليها ، بعد فهم النصوص فهما متناسبا مع ثقافة القوم ، أو تغيرت صورة الله نتيجة لجدال فلسفيّ كلاميّ وهنا فالتغيير حاصل لدى طرفي النقاش ، وهذا ما حدث مع المعتزلة مثلا.

وثمة عدة تصورات لدى الشعوب المسلمة عن الله ، تتنوع بتنوع الفرق العقدية ، بل وأحيانا المذاهب الفقهية أيضا ، وتتنوع داخل الفرقة الواحدة ، بل إن هذه التصورات لا تتطابق تطابقا تاما بين أي عقلين لأي فردين ، لكن ثمة خطوط عامة يمكن تعيينها كتصورات في الأفهام عن الله ، سنناقش بعضها ، وننـاقش مدى اتساقها مع منظومة الأفكار التي تحتويها.

التجسيم

وهو قول بعض غلاة أهل الحديث بأن لله جسما ، ويدا ، ورجلا ، وساقا ، وعند مواجهتهم بآية (ليس كمثله شيء) يفصّلون فيقولون له يد ليس كمثلها شيء ، ورجل ليس كمثلها شيء وساق ليس كمثلها شيء! وهذه عقيدة (الشاب الأمرد) التي تقول بإله يجلس على كرسي ويضع رجليه في الماء ، ويرتدي نعلا شراكه من ذهب ، إلى كل ذلك من التصور لإله مجسّم يدعي المعتقدون به أنهم لا يجسّمونه ، بل ويكفرون من يجسمه ، وكل مقالاتهم في هذا معاضل لا تجد حلا!

التنزيه

وهو قول غيرهم من الفرق الإسلامية بتنزيه الله عن أن يكون محدودا في أبعاد أو له جسم أو شكل ، وتفسير ما أشكل على المجسمة من أوصاف يحملونها محمل التجسيم من خلال ما في اللغة العربية من مرونة ، فتكون يد الله فضله أو قوته أو عهده ، ويكون العرش هو ما يقع تحت أمر الله ، ويكون العلوّ كناية

عن التنزيه والعظمة والغلبة ، لا علوّ الأبعاد المعروف لدى بني الإنسان.

وهنا نحن أمام صورتين مختلفتين عن الله ، إذا تكلمنا فيهما بلغتنا ، قلنا إن الخلاف هنا حول إله كينونته منفصلة عن كيونونة الكون ، وهذا مؤدى التجسيم ، ومؤدّاه تجسيم على نحو ما ، لأنه يفترض مسافة مكانية زمانية بين الله والكون ، أو إله كينونته حاضرة في الكون ، يحتوي الكون في مفهومه ، ويتجلى في كائنات كونه.

ولا يخفى اضطراب فكرة الإله ذي الكينونة المنفصلة ، إذ هي تتعارض مع كل البراهين التي تساق على كينونة الله ، وتُفقد الاعتقاد المستقى من إرادة الاقتناع بهذه الحجج اتّساقَه ، لكنّها تجد عونا فلسفيّا لترقيع التناقضات فيها عند الفلسفات المسيحية ، التي أرادت تسويغ كون المسيح بصورته المعروفة إلهًا ، وفي المقابل لا تخفى الأصول اليهودية لفكرة الإله المجسّم ، وهي عند أهل الحديث تشبه طبيخ الشحاذين ، من كل قطر أغنية! أفكار تفتقر للاتساق ، ولا تقوم على ساق!

اما فكرة الإله ذي الكينونة المتصلة مع الكون ، فهي تشبه فكرة (أمّنا الطبيعة) ، ولا نجد تناقضات قاتلة في المنظومة التي تحملها ، إذ يُحسن المعتزلة والأشاعرة على خصومتهم وغيرهم من المنزهة التعامل مع النص القرآني ، ويقدّمون فهما مقبولا له ، متسقا مع هذه الفكرة ، لكنّ هذه الفكرة أمام تحدٍّ كبير! إذ كيف نقبل أن كينونة الله متصلة بكينونة الكون ، ونعتقد أنه أصل الكون! ثمّ ماذا عن الأوصاف التي تلحق به مشاعر إنسانية كالغضب والرضا وسواها مما نصّ عليه القرآن مثلا!

كإضاءة سريعة قبل ختام هذا القسم ، نلاحظ أن هذه التحديات يمكن حلها ، فالدلائل الممكن الإمساك بها في حجج إثبات الكينونة للخالق ، تعنى بما يمكن إدراكه من لحظات بدء الكون ، وهنا نجد ما سنسميه أمر الله أو تجلّياته أو سننه الكونية أو سنن الكون أو سمّها ما شئت ، حاضرة في اللحظة الأولى لبدء الكون ، وهي التي قادت مسيرة الكون والأرض والحياة عليها حتى هذه اللحظة ، وبهذا فإننا في المدى الممكن إدراكه ، يمكن لنا أن نعتقد _إذا

أردنا_ بكينونة هذا الخالق ، التي لا نلمس منها سوى ما ينعجن في هذا الكون ، ولنا أن نمجّده ونلحق به ما نقبل من صفات سامية حسب ديانتنا أو نصوصنا.
أما الفكرة المتعلقة بأي أوصاف تعتري البشر مما يشكل علينا عند وضعه أمام هذه الفكرة ، فنردّها لحدود الوعي الإنساني المحكوم بما عرف ، وأن أي حديث عن الله ، هو حديث تقريبيّ ، يقرّب مفهومه للأذهان ، ولا يحدّه أو يغلق عليه تصوّرا محدّدًا ، ونقف عند حدود ما يمكن إدراكه ، تواضعا أمام هذا الكون العظيم الذي لا نعدو فيه أن نكون ذرة غبار!

وهنا نكون خلصنا إلى أنه وإن لم يكن لنا أن نقهر العقول لقبول فكرة الله أو رفضها ، فإنّنا يمكن أن نحاجج ضدّ بعض الصور الشائعة عن الله ، ونقهر العقول على رفضها ، أقول العقول لا الأذهان ، فليس كل ذهن يحقق شروط العقل ، ونبقى أمام حقيقة موضوعية وهي أن الناس في النهاية أحرار بما يعتقدونه ولا يمكن قهرهم على شيء ، فمن أراد أن يعتقد بإله مجسم نزق متسلط يجلس على كنبة ما في السماء ، فلا يمكن لنا أن نجبره على رفض تصوّره ، لكننا نعود هنا إلى أثر هذا على واقعنا ،

فتصوره من شأنه هو ، لكن ما سيؤثر به هذا التصور على حياتنا فمن شأننا نحن.

قررنـا في الحلقـة الســـابقـة الانتقـال إلى نقـاش أثر التصديق بالله ، أو التكذيب به ، على الواقع ، على أن تكون لنا عودة لنقاش صـورة مفهوم الله في الأذهان ، أي تلك الصورة القابلة للتصديق بها ، بل وربما يكون لزاما علينا توضـيح اسـتحالة صـورة أخرى له ، ولكننا نخصـــص هـذه الحلقـة للحـديـث في مـا يترتـب عن التصديق ، وما يترتب على التكذيب ، وما يترتب على عدم اتخاذ موقف من فكرته.

خوارزمية الحل

الحديث عن مؤدى فكرة ما ، لتسويغها أو رفضها ، هو من المغـالطـات المنطقيـة ، لكن كون هـذا الحـديـث مغـالطـة ، في الحقيقـة مشـــروط بكون هـذا الحـديـث يسـاق على سـبيل البرهنة ، لا عن تلك الأفكار التي لا تجـد برهـانـا لقبولهـا أو رفضـــهـا ، ولأن فكرة الله كمـا أسـلفنا ، هي من ضـمن الاعتقاد الإرادي ، فهذا مسـوِّغ مقبول للحديث حول مؤدى المواقف المختلفة منها

لترجيح موقف ما ، أو لحل المعضـــلة المترتبة على وجود الخلاف حول هذه الفكرة.

كلمة الخوارزمية في عنوان هذا القســـم مأخوذة من عالم برمجة الحاســوب ، فالمبرمج الرقمي ، وحتى من يصـــمم عمليـة ميكـانيكيـة ، قـادر على توحيـد أثر المتناقضـات ، ولسـنا هنا في صـدد تصـميم برنامج أو عملية توحد أثر المتناقضات ، لكنني وضعت العنوان بأثر رجعي بعد أن قلبت الفكرة كما ســـنتابع بيانها ، لأنني أزعم أنني وجدت خوارزمية للحل ، وأنا أقلب فى خيارات المشكلة.

ســـنبدأ أولا بمؤدى تكذيب فكرة الإله ، ثم ننتقل إلى مؤدى الموقف اللَّا-أدري أي الامتنـاع عن اتخـاذ موقف ، ثم ننتقـل إلى مؤدى التصـــديق بـالله ، أي بـالصـــورة الممكنـة عقلا لله ، وخلال هـذا ســـتكون محاكمة المؤديات مبنية على الســـؤال الوجودي "ما هو معنى الحياة ؟" أو "ما هو الغرض من وجودنا ؟" ، وهذا مُفضٍ بالضـرورة إلى سـؤال "ما الذي يجب علينا فعله ؟" في كل حالة من تلك الحالات ، على أن نمرَّ لاحقا على المؤدى الأخلاقي أيضا.

مؤدى التكذيب

الذي يكذب بخبر الغيب ، أو بفكرة الله ، يقول بنفي مفهوم الإله ، ولن نستعرض ما ترتب على هذا عند فلاسفة الإلحاد ، لكننا سنقف على مؤدى هذه الفكرة بعيدا عن مهاجمة الديانات والنيل من مقدسات الآخرين ، لأننا نحاكم الموقف من جهة التساؤل عن معنى الحياة في ظل اعتناق هذا الموقف.

الذي ينفي الكينونة عن الله ، يسقط عنده مفهوم أن الغرض من هذه الحياة هو التحضير للحياة السرمدية ، وهو إذا كان مولودا لأسرة متدينة ، لم يصل لموقفه هذا عنادا ، بل أحب الحكمة وبحث عنها ، ورأى فيما رأى ألا يصدق بالله ، ووقف موقفا مبدئيا في سبيل قناعته التي اختارها ، وهذا النوع من البشر خليق بأن يتساءل عن معنى الوجود في ظل موقفه ، فهل حياته كما يتخيلها معظم المتدينون بلا معنى! أم أن ثمة معنى لوجوده عنده! والكلام في الفقرة الآتية مبني على أنه يرى معنى لحياته.

يعرف أصحاب هذا الخيار جيدا أن السؤال الوجودي عن معنى الحياة يعود لسطح الدماغ بمجرد اتخاذ موقف التكذيب ، والسؤال _أي سؤال_ في ذاته هو فراغ يدركه العقل ويسعى لملئه ، فهو حاجة للمعرفة ، ولأن هذا السؤال بالذات يقف على تخوم الوجود المدرَك ، فإنه يمثل قمة الوعي النامية التي تسعى لضوء المعرفة ، وأزعم أن الإجابة من خارج السؤال مستحيلة ، ويبقى أن نتَّكئَ على السؤال ذاته لنقف على إجابته! أي أن هذا السؤال عن غاية الوجود هو في حد ذاته غاية صالحة للوجود ، ولكي نكون أكثر وضوحا ، فإن الغاية من الحياة في ظل هذا الموقف هي المعرفة في حد ذاتها ، فالسعي نحو المعرفة هنا هو الجواب الذي تجد العقول فيه سلامها.

مؤدى عدم اتخاذ موقف

موقف اللَّا-أردية من الله ، ليس كموقف المحتار الذي يسعى لقرار ، بل هو نوع من الاطمئنان إلى استحالة معرفة الجواب عن سؤال الله ، وهذا لا يعني الاطمئنان أمام سؤال الوجود ، لكن الشعور بعدم

إلزامية اتخاذ موقف مما نجهل ، هو الذي يشكل سلاما لأصحاب هذا الموقف ، وكأنه يعلن تواضعه أمام جهله ، فسيقول لأي إله مفترض ، يجده حقيقة بعد الموت: لقد تواضعت أمام جهلي ، ولم يصل لي علم قطعي عن شيء يتعلق بك ، فلم أرفضك ولم أقبلك! وكل من هو خليق بأن يكون إلهًا سيتفهم هذا التواضع ، في ظل ما يعرفه عن العقل الذي خلق!

والتواضع أمام الجهل ، هو في حد ذاته موقف معرفي معتبر ، وإن كان ينطبق عليه ما ينطبق على الملحد فيما يتعلق بسؤال الوجود ، فهو أقرب لأن يعدَّ المعرفة غرضا للوجود ، لأنه يقرُّ بجهل ما يجهل ، ولهذا فهو لابدَّ يسعى لمعرفة ما تُمكن معرفتُه ، فلنا أن نقول إن المعرفة في حد ذاتها بالنسبة له غاية صالحة للوجود ، ولأنه يقر بعدم اكتمالها ، فهو يسعى لها ، ويجد فيها معنى وجوده.

مؤدى التصديق بالله

سيسهل علينا الأمر هنا أن الديانات في عمومها تدعو للتواضع أمام جهل الإنسان ، بل وتعترف بأن المعرفة الكاملة لا تتأتى إلا لله وحده ، لكن هذا أيضا يشكل معضلة ، إذ أن هذا الموقف قد يزهِّد أتباع ديانة ما بالبحث عن المعرفة ، وهذا في الحقيقة موقف الجهلة من كل فرقة من الفرق العقدية ، فهم يخلطون بين مفهومين متباعدين ، الأول أن المعرفة الكاملة أو العلم التام لله وحده ، والثاني أن معرفة الإنسان لله هي تمام المعرفة ، فهم يعتنقون الثاني لا الأول ، بل ومن الغرائب أنهم يتوصلون إلى الثاني من خلال الأول ، وهذا لا يؤدي لهذا ، بل قد يؤدي لأي شيء إلا هذا!

المصدق بكينونة الله ، يجعل أقصى غاية وجوده داخل عالم الغيب بالنسبة له ، وهذا هو مخ الموقف التصديقي ، وهو إذ يسعى لخلاصه بمعرفته لله ، فإنه يسعى لمعرفة ما يغيب عنه ، ويتفلسف في سبيل ذلك ، ويجعل الحكمة غايته ، ويتبع ما يرى أنه عرف منها ، وبافتراضه كمال الله ، فإنه يعرض فهمه لتعاليمه من أي ديانة جاءت على مفهوم الكمال البشري بالنسبة له ، وربما لوى المنطق ، أو لوى

منطوق النص المقدس عنده ، لكي يحافظ على كمال الله في ذهنه ، وهذه النصوص التي تحتاج لهذا الإعمال للعقل في سبيل تنزيه الله عن النقائص ، هي معضلة المتدين ، فإن حللنا هذه المعضلة فقد أعدنا للمتدين المنطق السليم الذي قد تكون شوهته هذه المحاولات.

ويسهل علينا الأمر أيضا ، أن الديانات تدعو للمعرفة ، وتحض الناس عليها ، وإن كان الفهم الخاطئ لتشخيص المعرفة المطلوبة هو ما يترك المتدين فريسة سهلة للكهنة من أي دين كانوا ، ليدعوا أن المعرفة المطلوبة هي المعرفة التي لديهم هم ، فالانطلاق من الواقع في سبيل البرهنة على كينونة الله ، أو جعل هذه الكينونة ممكنة ، يجب أن يتوسع لكي يصبح الواقع المدرك عيار كل معرفة ، وبهذا يعود التشخيص الصحيح لمعنى طلب العلم والمعرفة في الديانات ، كعبادة وكغاية من الوجود ، فالمعرفة سواء كانت علمية أو عرفانية هي الغاية من الوجود ، وهي حبل النجاة لبني الإنسان.

وهنا نجد أننا يمكن أن نحصـل المؤدى ذاته من كل المواقف الممكنة من فكرة الإله العظيم ، تكذيبا أو تصديقا أو تواضعا أمام الجهل ، وهو في كل الحالات أن الغاية الصالحة لتكون غاية للوجود الإنساني هي المعرفة ، هي السعي للمجهول ، والتواضع فيما نظن أننا نعرفه ، والعالم يتواضع لأنه ما تعلم إلا لأنه وجد نفسه مرارا على خطأ ، وهكذا تعلم ، والجاهل هو من يظن أنه امتلك المعرفة الكاملة ، واحتكر الحقيقة.

لا عجب أن يؤدي بنا النقاش العقلاني الساعي للمعرفة إلى أن الغاية من الوجود هى السعى للمعرفة ، فإن أبدت لنا المعارف غايات أخرى تضاف لهذه الغاية ، فبِها ونعمت ، ولكن أيَّ غاية تلغي المعرفة ، لا تصلح أن تكون غاية للوجود الإنساني الذي يميزه عن سائر الكائنات عقله الساعي بطبيعته للمعرفة!

سننتقل من هنا إلى نقاش فكرة الأخلاق ضمن المواقف الثلاثة ، وسؤال الأخلاق من أكبر المشكلات الفلسفية ، ولكن إن أمكن إدراك المطلب باقتضاب ، فما من داع للإطناب ، سنقتفي أثر هذه

المواقف على واقعنا من خلال مبدأ أن كل ما نعرفه عن الغيب لابد وأن يُبنى في الأســـاس على الواقع ، لعلنا نجد ســـلامنا الواقعي فضـــلا عن ســـلام عقولنا الذي ننشده من خلال هذه المواقف.

رأينا في القسم السابق أن السعي للمعرفة يصلح كغاية للوجود ، في كل حالات الموقف من الله التي ناقشناها ، ولابد من التذكير أننا نحاكم المواقف هنا بميزان مؤداها ، لأنه تعذر الوصول لنتيجة من محاكمتها بميزان البرهان ، وكنا قد فحصنا المواقف الثلاثة بناء على سؤال الوجود ، والآن نحن بصدد فحصها بناء على سؤال الأخلاق.

لأن هذه المرحلة من محاكمتنا مبنية على الأثر الواقعي لاتخاذ أحد هذه المواقف ، فمن المسوَّغ لنا أن نقصر سؤال الأخلاق الواسع جدا ، المتضمن على ماهيتها ونشأتها وتاريخها ووجودها ومدحها وذمها ، ليكون السؤال الضيق هو عن إمكانية وقوف متخذي المواقف المختلفة من فكرة الله ، على أرضية أخلاقية مشتركة ، وهل خلافاتهم حول الأخلاق حتمية بالفعل كما يبدو ممَّا يتكرر في المناظرات بينهم ؟
وسأضع النتيجة أمام النقاش هنا ، ثم أنتقل للتدليل عليها: نعم يمكن لصاحب أي موقف من فكرة الله أن يكون إنسانا أخلاقيا! بل يتوجب عليه أن يسعى

للفضيلة ، والتصديق أو التكذيب أو عدم اتخاذ موقف لا يعني بأي حال من الأحوال وجوب نقض فكرة الفضيلة ، حتى أنه لا أحد منهم بمجرد كونه موقفا من الله ، يعني موقفا أخلاقيا مناقضا لموقف الآخر الأخلاقي.

وهذا للأسباب الآتية:

الأخلاق الإنسانية لها منشأ مستقل تماما عن الموقف من فكرة الله ، وهو كون الإنسان كائنا اجتماعيا ، وكل الكائنات الاجتماعية لها نظام أخلاقي ما تسير فيه.

الأخلاق والفضيلة وإن كان لهما أبعاد فلسفية ومعرفية بل وعلمية ، فهما بالدرجة الأولى قضايا سلوكية نفسية اجتماعية أحيائية "بيولوجية".

النظام الأخلاقي يختلف باختلاف الثقافة المجتمعية ، لا باختلاف التصورات الفردية عن المسائل الغيبية.

الديانات تدلل على فضـــلها الذي تدعيه بالاتكاء على عيار الفضـــيلة ، فالأخلاق هي عيار التدين بالنســـبة للأديان ، وليس التصديق هو عيار الأخلاق.

السـعي للمصـلحة الجمعية لكل مجتمع ضـمن ذاكرة جمعية هو ما أسس للنظام الأخلاقي لكل مجتمع.

يتبنى الإنســان النظام الأخلاقي لمجتمعه أثناء تكوُّن وعيه ونضـوجه ، قبل انخراطه في المسـائل المنطقية والعلمية والدينية.

المنظومـة الأخلاقيـة أكثر ثبـاتـا في النفس من ثبـات النفس على موقف معرفي ما ، فالتصـــديق مثلا يزداد وينقص ، لكن الأحكام الأخلاقية عنده أكثر اســتقرارا وأقل تذبذبا ، وإن تذبذبت درجة الانقياد لها.

نعم ، ما ســـبق قد يحتاج في كل نقطة منه لإثبات مسـتقل ، ولكن هذه من مسـتقرات مبحث الأخلاق ، وكـل منهـا لهـا إثبـاتهـا ودلائلهـا بـالفعـل ، لكنني لا أحســب أنها مما يختلف فيه من بلغوا مرحلة التفكير

في الله ، لذلك أوردتها على سبيل التعداد ، لا على سبيل الإطناب في الشرح والتفسير لكل نقطة منها.

لكن لنعترف ، ثمة اختلافات في المنظومة الأخلاقية بالفعل ، بين المصدقين بالغيب والمكذبين به ، فهل وجود هذا الاختلاف كاف لنقض ما مررنا عليه من مستقرات ؟ في الحقيقة لا ، لسبب بسيط ، وهو أن الاختلافات هذه حاضرة بين المصدقين أنفسهم ، من شتى الديانات ، ومن كل ديانة في ذاتها ، وبين شتى مذاهبها ، بل وبين المكذبين أيضا من شتى مذاهبهم ، وللمعرفة والموقف المعرفي أثر على المنظومة الأخلاقية ، لكنه أثر متأخر وليس بدئيا. فما أسبابه ؟

يدعي كثير من علماء الاجتماع أن الدافع الأكبر للتاريخ البشري هو حاجة الإنسان للاعتراف من المجموعة التي ينتسب لها ، وهذا وإن كان ثابتا بتجريده ، فهو يتغير بتغير تعريف الإنسان لهويته ، أي للجماعة التي ينتسب إليها ، فمن كان يرى نفسه في جماعة المنتسبين للديانة المحمدية (مسلما) ، ثم نقض تصديقه بها ، فيغلب عليه أن يعيد تعريف

هويته ، فيذهب لكونه عربيا مثلا ، أو إنسـانا ، وهذا الانتسـاب الجديد لا يؤثر في حاجته للاعتراف في ذاتها ، بل يؤثر بها بوسـاطة من يبحث عن الاعتراف منهم! فيبدأ بتبني منظومة خلقية مختلفة قليلا أو كثيرا عن سابقتها.

وهنا يبدو قول مأثور عن نبي الإسلام منطقيا (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسـلام)، فعيار الخيرية لم يختلف باختلاف معتقد القوم ، ولهذا أيضـا يقول أصـحاب كل دين إن الله يهدي أصـحاب القلوب الطاهرة لدينهم ، وهذا إقرار منهم بأن فضـيلة هؤلاء المنتظر هدايتهم سابقة على اعتناق تصور معين عن الغيب.

الأخلاق والفضائل متعلقة بالمشهودات ، ونجدها في عالم الأعلام ، بذرة وشـجرة وثمرة ، وليس للاعتقاد فضل فيها سوى تكريسها في نفوس الأفراد ، كل فرد على حدة ، أي عندما يخلو بنفسـه ، والاعتقاد أيا كان يأتي ليؤثث الدواخل النفسـية للناس لتتناسـب مع الهيكل الخارجي الذي تفرضه البيئة والمجموعة التي ينتمي لها الفرد ، وهي مثلما تكون مساعدة للصلاح

عند بعضـــنا ، تكون مســـاعدة للفســـاد عند بعضـــنا الآخر ، وأؤكـد هنـا أنني أتحـدث عن أي موقف من الغيب.

وأخيرا سأقفز لادعاء آخر ، سأتركه لمشاهداتكم ، أفلا تجدون أحيانا أن المعتقدات تتغير هي والمنظومات الأخلاقية بتغير البيئة التي ينتسـب لها الفرد ؟ تذكروا من معارفكم أناســـا أحســـوا بالغربة بينكم ، وكانوا متعلقين بمجتمع آخر يحلمون أنهم إن عاشـــوا فيه فسـيحصـلون على حاجتهم من الاعتراف ، بالمناسـبة هذا الاعتراف المطلوب قد يكون من المجتمع الذي ينوون الهجرة إليه ، أو من مجتمعكم إذا كان مصـــابا "بعقـدة الخواجـا" ، ورأيتم تغيرات طفيفـة كـانـت أو شـــديدة في منظوماتهم الخلقية والعقدية بســـبب تقربهم من هذا المجتمع!

علم الاجتماع وعلم النفس وسائر المباحث الإنسانية لديها ما تقوله في نشـــأة وســـيرورة مفهوم الفضـــيلة ، ولديها ما تقوله أيضـــا في نشـــأة وســـيرورة المعتقدات عن عالم الغيب ، وفي مواقف الناس من فكرة الله ، تكذيبا وتصديقا ولامبالاة.

نكون اليوم قد أقررنا أن الموقف من الله ليس بذي أثر بالغ في الشق الذي يهمنا من سؤال الأخلاق ، وننتقل في الحلقات القادمة إلى أمر آخر ، ربما سيكون أولها نقاش سؤال يطرح نفسه أمام كل ما وصلنا له ، وهو: إذا كان الأمر كما خلصنا له فلماذا كل هذا الاقتتال باسم الأديان ؟ ولماذا كل هذا النزق عند النقاش حولها ؟ ثم نعود إلى ماهية التصديق المقبول عقلا ، والحديث أكثر عن الصورة الممكنة لله ، التي يمكن لها أن تمنحنا حياة خالية من الاقتتال ، وتعفينا من كل هذا القتل باسمه ، وكيف نتعامل مع فكرة التكفير السائدة اليوم والتي نعاني بسببها ما نعاني ، ومع تناقضات مفروضة على المصدق بالديانة المحمدية ، إذا قال بما قلنا.

مررنا من قبل على أن التصـــورات عن الغيب ، أفكار شخصية يستحيل أن تتطابق تماما حتى بين تابعَيْن للديانة نفسـها ، ونحن نتسـامح مع أخطاء التصـنيف لنســهل التفكير فيها ، وعالجناها من خلال المواقف الرئيســة من فكرة الله ، ورأينا أنه لا شــيء يميز على وجه حقيقي أصـحاب المواقف المختلفة من الله تبعا لموقفهم ، والحديث هنا عن المســتوى الإنســاني ، المعرفي ، والأخلاقي ، لكن نحن نقف أمـام تحـدي وجود الصــراعات بين الديانات ، والصــراعات بين أصــحاب المواقف ، وحروب ثقافية طاحنة يأخذ فيها الموقف من الله مكان عنوان الصـراع ، فما المسـؤول عن هـذا إذا كـان الموقف من الله غير ذي أثر ؟ ومـا أســباب الهجوم على اعتقاد ما هجوما شــرســا! وما الشــيء الكامن وراء فكرة التكفير مثلا! وكل هذا مما يظهر على أنـه يؤثر بواقعنا مما يتصــل بالموقف من الله.

صراع التصورات الغيبية

الذي ينظر للتاريخ من نافذة الموقف من الله ، يرى أن الحروب في التاريخ هي حروب دينية ، ويلوم الله أو العقائد على هذه الحروب ، ولكن من يطلون على التاريخ من نوافذ أخرى يرون شيئًا مختلفا تماما ، فالحروب لها عواملها الواقعية ، المصلحية ، السياسية ، وعندما تكتمل هذه العوامل تقوم الحرب ، وقد تُستخدَم العقائد في الحرب ، وقد لا تستخدم ، وهذا يشمل الصراعات كلها وليس الحروب فقط ، حتى تلك الصراعات التي تحدث داخل الدولة الواحدة والثقافة الواحدة ، كالصراع على الحكم أو على مكاسب ما.

في إجابة السؤال (لماذا تتحارب الأمم؟) - وهو عنوان كتاب مهم- يظهر سبب رئيس للحرب وهو ما سأنحت له اسما غير اسمه المشهور "الكرامة الجمعية" ، وهو ما يتجلى في "ظاهرة التحلِّق حول الراية" ، فالجماعات تتحارب لأسباب كثيرة وشرارتها الرئيسة هي انتهاك الكرامة الجماعية ، ولأن هذه الكرامة مفهوم فوق واقعي ، لا يمكن الإمساك به ، فإن المجتمعات تخلق رموز وعيها الجمعي ، وتتحلق حولها ، الرمز قد يكون رمزا ثقافيا راسخا في ثقافة

القوم ، وقد يكون رمزا طارئ الوجود ، غاية وجوده أن يكون راية أو علما تتحلق حوله الجماعة لكي تحارب ، وفي الحالين فتوظيفه أثناء الحرب يضعه في خانة الراية ، والله هنا أو أيا كانت تسميته عند سائر الشعوب يصبح في هذه الحروب مجرد راية.

كل ما سبق هو للرد على فكرة أن الأديان هي أصل الشرور كلها ، وفكرة الله هي الملامة على وجود الحروب ، ولا أعرف عاقلا يلوم الراية على وقوع الحرب! لكن للحقيقة متى ما اشتعلت الحرب ، فإن الرموز تبقى طويلا فى الوعى الجماعى كمحفز لاستمرار الحرب أو إعادتها إذا انتهت ، ولا يغيب عن أذهاننا أن هذا الرمز حاضر فقط بما يمثله للجماعة البشرية التي تبتغي مصلحة واقعية ، وتعلق كرامتها الجماعية بها ، فالموقف من الله أيا كان بريء من الحرب.

فهل الصراع بين المعتقدات هو محض تمثيل ذي سمت ألطف للصراعات بين المجتمعات البشرية ؟ أقصد صراعات الدول والأحلاف والقبائل والثقافات ، نعم هذه كانت الحال في الغالب الأعم ضمن تاريخ منطقتنا ، وأظن هذا ينطبق على غيرها من المناطق ،

لا سيما قبل تشكل الدولة الحديثة ، فالجماعة البشرية القديمة كانت مفتقرة للأداة التنظيمية الحديثة ، التي توحد التعليم ، وتوحد الثقافة ، وتوحد القوة العسكرية ، وتشق الطرق ، وتمدد المياه والكهرباء ، وسوى ذلك مما يربط المجتمع ببعضه اليوم ليشكل الدولة الحديثة ، فكان المُلك محتاجا للرمز الجمعي ، وهو اليوم في الدول المتخلفة عن ركب الحضارة تعويض فقط عن غياب المشاريع الجامعة التي تشكل الدافع الحضاري الأول ، وإذا وجد في دولة متحضرة فهو فائض عن الحاجة ، إذ رموز الوعي الجمعي الواقعية في تلك الدول كثيرة ، لكن الزيادة إذا لم تكن تضر فلا بأس بها.

في تاريخنا العربي ، كانت كل القبائل ، يهودية ومسيحية وحمسية وطلسية وحلية ووثنية وسواها ، مصدقة بكينونة الله ، لكن لأنها كانت متحاربة ، وكانت رموز الوعي الجمعي تلعب دور الراية في الحروب ، اقتضى من مشروع التوحيد للمجتمع أن يكون مشروعا لتوحيد الرمز ، وكان الإسلام هو مشروع توحيد الله وإلغاء الآلهة الأخرى ، وبغض النظر عن صورة الله القابلة للتصديق والتي سنناقشها

فيما بعد ، فقد جاءت صـــورة الله إســـلاميا ، على أنه جامع لصـــفات الآلهة الســـابقة ، وجاءت الشـــريعة الإســـلامية الأولى ، كذلك خليطا من أعراف الأقوام الذين اتحدوا فباتوا قوما واحدا.

وعلى عكس ما يظن أصحاب العقول الغضة ، كانت النزعة الدينية تتراجع كلما قويت الدولة الواحدة ، وكانت تعود وتعلو فوق كل شيء كلما ضعفت الدولة أو تفتتت ، ونرى في قبول المسلمين لقول منسوب لابن الخطَّاب وترديده مثالا واضحا على المطلوب من المنظومة العقدية واقعيا ، إذ يقول "نحن قوم أعزنا الله بالإســـلام فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله" ، ولنترك فحوى القول التي تروق للناس فيتداولونه ، لنمســـك بمعنى آخر له ، وهو أن المطلوب هو "عزة القوم" لا الإسلام في ذاته! وهل عزة القوم شيء آخر غير "الكرامة الجمعية"!

الله بهذا المعنى كان أهم جندي في الحروب بين الأمم ، لكنه لم يكن جنديا مقاتلا ، كان جنديا مكلفا بحمل الراية ، أو كان الراية ذاتها ، وهو لا تقع عليه لائمة الحرب ، ولا يعد مجرما كما يريده بعض

الملحدين ، إلا إذا كانوا يعتقدون بكينونة فعلية له داخل تلك الحروب! وهو اليوم ما زال يشغل المنصب ذاته في الصراعات ، الكل يستهدفه للإطاحة براية العدو ، لكنه لا يستهدف أحدا غير بقاء وعي أفراد الجماعة بهويتهم قائما.

وهنا نكون وقفنا على حقيقة الصراع بين العقائد على مستوى الجماعات ، فماذا عن مستوى الأفراد ، وهل يشكل المصدق بالله تهديدا فعليا للمكذب بكونه مصدقا ؟ وهل يشكل المكذب لفكرة الله تهديدا للمصدق به بكونه مكذبا ؟ فإن لم يكن فأي صفاته تجعله تهديدا لأخيه ؟ وهل ثمة حل لكل هذا! ثم ماذا عن صراع الشريعة والقانون ، وصراع كليهما مع فكرتنا عن العدالة ؟ وماذا عن أثر فكرة الله علينا كأفراد ، وكأعضاء في جماعة! وما هي الصورة المقبولة له عقلا! سنمر على كل هذا وغيره فيما بعد.

انتهينا من صراع المجتمعات وعرفنا أن المعتقدات لا تعدو أن تكون أدوات في صـــراع المجتمعات ، فماذا عن صـــراع الأفراد حول الموقف من الله ؟ ما الذي يقف وراءه ؟ وهل ثمة عربيا ما يمكننا من فك التناقضـــات القائمة بين الأفراد والمجموعات عند أصحاب المواقف المختلفة من الله ؟ لنصل إلى مكان يرى كل صـــاحب موقف أخاه المختلف عنه أخًا لا عدوًّا ، فنحل مشـــاكل الصـــراعات بين المذاهب في الديانة الواحدة ، ضمن هذا الحل!

صراع الأفراد عقائديا

يتعلق كل منا بدرجة أو بأخرى بديانة أبويه ، وعندما يصـطدم بأول نقاش مع شـخص لا يعتقد بما يعتقد ، يحســـه غريبا عنه ، ويبقى خيار الانفتاح أو الانغلاق عليه مقرونا بالتأثيث النفســـي والمرونة العقلية ، والمؤونة الثقافية للفرد ، وكل ما سبق مقرون بتكوينه الذي تحكمت فيه بيئته.

ولأننا نعيش ضـــمن مجتمعات متخلفة ، فإن بيئاتنا تزرع فينا بذور النفور من الآخر والانغلاق عنه ، وكما ســبق وأشــرنا فإن لهذا عوامل تتعلق بتعريف الجماعات لنفســها ، والهوية التي تمنحها الجماعة للفرد ، والاعتراف الذي ينشده الفرد من الجماعة التي يرضاها منتَسبا له! أما عوامل النفور الفردي من الآخر فإليك بعضها:

غياب المشــاريع الجامعة التي تذوب فيها كافة مكونات المجتمع.

مثلا... "الأسطة حراج القط العامل في السد العالي" الذي يرد اسمه في قصيدة الشاعر الشعبي المصري (الأبنودي) لا يمكن لك تصــنيفه إن كان قبطيا أو مسلما أو ملحدا أو بهائيا ، هو فرد في جماعة تسعى لمشــروع كبير وفقط. كذلك دعا أهل يثرب الرســول لزيارة قزمان والصلاة عليه ، لأنه استبسل في حربهم مع المكيين ، ولم تخطر لهم الحســابات العقدية.

المجتمع الـذي يســعى لمشــروع كبير يمنح أفراده الاعتراف الـذي يطلبون تبعـا لأثرهم في تحقيق هـذا المشروع ، ولا ينتبهون لأمر آخر.

تحول العقائد في ذاتها إلى مشروعات وهمية كبيرة.

لم يكن ليحدث هذا لولا غياب المشروعات الحقيقية ، وحتى عندما شــكلت دعوة ما مشــروعا جامعا ، فلم يكن هذا على المســتوى العقدي ، ولم تتصــادم مع عقائـد النـاس إلا عنـدما تغـدو هـذه العقـائـد عقبـة في طريق العمران ، فـالـدعوة هى فى الأصـــل عقـد اجتماعي ، وعندما يخرقه الأفراد ينبذون ، ولهذا رفض الرسـول الصـلاة على قزمان في المثال السـابق ، لأنه قاتـل للســبب الخـاطئ ، وهو الحَميَّـة القبليـة! فقـد ينســحـب هـذا النبـذ على من لا يعتقـد بـالعقيـدة المصاحبة للدعوة.

الهروب نحو تعريف الصـراع الوجودي الذي تخوضـه الأمـة العربيـة تعريفـا دينيـا من بـاب توظيف رموز الوعي الجمعي.

وهكذا عندما التبســت هوية الصــراع ، بات الناس يظنون أن المســتهدف هو معتقدهم ، لا وجودهم الحضاري ، وبقعتهم الجغرافية ، وكيانهم السياسي! وهكذا اســتغلت النصــوص الممكن اســتغلالها بعد انتزاعها من سياقها التاريخاني والنصي ، لتوظف ضد أصــحاب كل عقيدة مخالفة ، وبات المتشــكك الموجود منذ القدم عدوا بدل أن يكون مادةً للدعوة ، مصــدقا محتملا بالغيب ، يؤلف قلبه ويخاطب عقله في سبيل أن يصدق.

ضعف البناء العقدي لدى المصدقين.

فالمصــدق لا يقف على أرضــية معرفية تســمح له بالنقاش المنفتح على الأفكار ، يشــعر بالتهديد الدائم ، لأنه في الحقيقة لا يجد ســلاما لعقله في تصــديقه ، إذ تصــديقه مبني على الســلام النفســي بشــعوره أنه عضــو في جماعته ، وهذا له جذر ، وهو التناقضات الكثيرة في المنظومة العقدية الشائعة في المجتمع العربي ، لاسيما إسلاميا ، إذ ما يشيع من نسخة ممسوخة من التدين لأسباب سياسية ومالية يحوي في داخله تناقضات قاتلة.

ضـعف البناء الفكري فيما يخص الواقع والسـياسـة لدى المكذبين.

نلمس أن كثيرا ممن يتخـذون موقفـا مغـايرا لأبنـاء أمتهم من الغيب ، فيكذبون فكرة الله ، ينسـلخون من قضـايـا مجتمعهم ، فتلفظهم مجتمعـاتهم بالمقابل ، وانسلاخهم هذا لسبب ، وهو التباس هوية الصـراع ، فمن تعلم صـغيرا أنه صـراع ديني ، ينقض موقفه بأثر رجعي إذا تغير موقفه من الله إلى التكذيب به ، وهذا لأنه لا يحوز من المعارف ما يخوله موقفا مشـرفا من قضـايا مجتمعه ، وبعد مشـاهدة المجتمع لأمثلة كثيرة من هذا الصنف ، يربط بين موقف الفرد من رمز الوعي الجمعي ، وبين موقف الفرد من الجماعة ذاتها.

قصـر المنظومة الأخلاقية على ما تحتويه المنظومة العقدية ، وأسبقية مزيفة للعقدي على الأخلاقي.

وهنا ترى المصـدق يربط بين الرذيلة والتكذيب ، وبين التصـديق والفضـيلة ، ويجد شـواهدا على هذا

الارتباط ، ممن يكون موقفهم من الغيب منبثقا في الأساس عن تبريرهم لذواتهم ارتكابَ ما يعتقدون أنه رذيلة ، وفي المقابل يأتي ظن المكذب ، لاسيما إذا كانت مشاربه الفكرية غربيَّةً ، أن كل ما يراه من تجاوزات للأخلاق الإنسانية الطبيعية لدى بعض المصدقين ، منبثق من منظومتهم العقدية.

المركزية المعرفية الغربية.

هذا يلعب دورا في تكريس صور مزيفة للديانات العربية ، وللتاريخ العربي ، وللواقع العربي ، ويخلق عند الجميع التباسا معرفيا هائلا ، وشعورا بعدم الثقة بالنفس العربية. تكون ردود الأفعال تجاهه النكوص للماضي أو الهروب للأمام ، وفي ظل عدم الوقوف على أرضية معرفية صلبة يغدو كل ما سبق طبيعيا.

كل هذا وغيره الكثير ، من غياب جو حرية الرأي ، والنفاق الاجتماعي ، واستسهال الحكم على الناس ، والثقافة السمعية ، وطلب الغلبة لا الحق ، إلى آخر هذه القائمة الطويلة ، يخلق هذا النفور من حوار الأفكار حول الله ، ويمنعنا من النقاش الهادئ

الصريح صادق النوايا ، ويجعلنا أعداء لبعضنا بعضا ، ويمنعنا من خلق عقدنا الاجتماعي الذي يرضي جميع الأطراف.

ويبقى بند أخير سنفرد له الحلقة القادمة كلها ، وهو الصراع بين الشريعة والقانون المدني الحديث ، والتلاعب الحاصل في طرفي الصراع ، وما يترتب على ذلك من فشل العقد الاجتماعي الذي يسمح بنقاش فكرة الله نقاشا هادئا ، ثم نعود لنقاش فكرة الله ذاتها ، أي الصورة المقبولة عقلا لله.

تكلمنا عن الصراعات بين أصحاب المواقف المختلفة من الله ، وعرفنا أنها بين المجتمعات غطاء لصراع آخر ، وأنها بين الأفراد امتداد للصراع بين المجتمعات ، ووعدنا بتناول الصراع الأهم ، وهو الصراع الذي يُفشل العقد الاجتماعي العربي ، الصراع بين الشريعة والقانون ، ولأننا لم نخض بعد في حل المعضلات التي تواجه صورة الله المقبولة عقلا ، فسنبني كلامنا هنا على ما عند الناس من أدوات ، على وعد بأن يكون الحديث بعد تفكيك تلك المعاضل حديثا مبنيا على أدواتنا التي سنكتسبها فيما بعد.

صراع الشريعة والقانون

مخ المسألة كالآتي ، الصراع بين أفراد في المجتمع يصدقون أن الله أنزل أوامر جماعية واجبة الاتباع ، وبين سائر المجتمع ممن لا يصدقون بهذا ، صراع حتمي ، والصراع هنا ليس صراع أفكار فقط ، فهو متعلق بالواقع ، فسائر المجتمع ممن يفسرون

النصـــوص المرجعية بطريقة مختلفة ، وممن لا يرون فكرة الشـــريعـة ملزمـة ، وممن لا يصـــدقون بفكرة الغيب كلها ، ولا يعنيهم ما يقول المصـــدقون أن الله قـالـه ، بـل لا يعنيهم الله أصـــلا ، كـل أولئـك على اختلاف أفكارهم عن الغيب يقررون أن الاتفاق على القوانين التي تنظم حيـاتهم مهمتهم هم ، وهـذا الخلاف بين دعـاة "الشـــريعـة" وبين دعـاة القـانون خلاف لـه أثره الكبير على جعـل الحوار حول الله حوارا شائكا ، ويحتاج حلا.

انشغل مفكرون كثر بإعادة تفسير ما يسمى "الشريعة الإسـلامية" لتناسـب العصـر ، وهذا ما سـوَّغ خطاب (المقاصد) وهي الفكرة الأهم في هذا السياق ، بيد أن كـل فعـل حقيقي ، جـاء ليعيـد العقـد الاجتمـاعي الإســـلامي للعرب ، كان يحرك العصـــر ليناســـب ما يسـمى بالشـريعة ، فرأينا الجماعات الإسـلامية وكأنها آلة زمن ، تعود بالناس للجاهلية الأولى ، فيختفي كل أثر لتطور العلوم والفلسفة ، ولا تظهر إلا الفتاوى التي تبيح القتل.

فكرة مقاصد الشريعة وخطاب مفكري المقاصد ، التي لم تؤت أكلها حتى اليوم ، قائمة على أن ما نعرفه نحن كمقصد لله من وضع الشريعة ، أهم من فهمنا لهذه الشريعة ، فإن وجدنا أن التطبيق الصارم لما نفهمه من شرائع الإسلام سيضر بالمقاصد المقررة للشريعة ، فواجب علينا أن نعيد النظر بفهمنا ، حتى نصل لفهم يحقق هذه المقاصد ، وهذا مرور سريع نعترف أنه ليس بإمكانه تلخيص الفكرة ، لكننا نأمل ألا نكون أضررنا بالمضمون ، ومن أراد الاستزادة فأمامه فرصة البحث والتعلم حول الأمر من أصحاب الفكرة.

اختطف دعاة الشريعة خطاب المقاصد وأعادوا تعريفه حسب تقاليد فهمهم ، فنتج عن هذا حصر فكرة المقاصد ، باشتقاق القوانين الجديدة التي لم يرد فيها نص ، معلِّلين دعواهم بقاعدتهم الشهيرة (لا اجتهاد مع نص) ، وهي قاعدة محورية في كل هذا الصراع ، مع أنها لم ترد في نص مقدس ، بل هي من أقوال السالفين فقط ، وليس لها أي قدسية ضمن منظومتهم على مستوى الأفكار ، وقدسيتها آتية من

ضـــرورتهـا العمليـة في الحفـاظ على اختلافهم عن غيرهم.

الفكرة المحورية الأخرى في خطاب دعاة الشـــريعة هي (إقـامـة حـدود الله)، أو (الحكم بمـا أنزل الله)، فكل من لم يقبل دعواهم هو بالنســـبة لهم كافر لا يقيم حدود الله ولا يحكم بما أزل الله ، ويجب قتله ، وهـاتـان الفكرتـان المحوريتـان (لا اجتهـاد مع نص ، وإقـامـة الحـدود) تحتـاجـان منـا لنظر ، فحتى تكون الحيـاة ممكنـة في أوطـاننـا ، وحتى تكون إعـادة اكتشـاف مفهوم الله ممكنة ، فلابد لنا من إيجاد حل لهما ، يضمن للمصدقين دخولهم فكريا العصر الذي يعيشون فيه واقعيا!

اجتهاد مع النص

قاعدة (لا اجتهاد مع نص) قاعدة باطلة ، يبطلها عدة أدلـة ، نعرض بعضـــهـا ممـا يتنـاســـب مع أدوات المصدقين المعرفية:

أولا: حســـب مطلق مدلول هذه الجملة لغة ، فهي تمنع الاجتهاد في فهم النص ، والنص بحاجة لاجتهاد

لفهمه ، وهكذا تكون الجملة باطلة ، وتحتاج لإعادة صياغة حتى تناسب ما يريده منها القوم! وكمثال عل الاجتهاد في فهم النص ، فالشرح العربي لمنطوق النص في (قطع يد السارق) يلغي فكرة بتر الكف التي يدعون أنها شريعة ، فتكون اليد هي القوة على السرقة ، لا الكف والذراع ، ويكون القطع هو كف يده عن السرقة. وثمة كثير من الأمثلة على هذا.

ثانيا: نقاش مؤدى هذه القاعدة قائم بسبب ظن سائد عند المصدقين ، بأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وهذا ما لا يدعيه النص ، لكنه آت بسبب نقاش فلسفي وقع قديما ، جعل فيه المصدقون القرآن غير مخلوق ، ورغم أن هذا باطل بمنطوق القرآن (ذكر من ربهم محدث) ، وأنه يمكن نقض هذا الظن منطقيا ، فسننقضه بناء على أدوات المصدقين فقط.

النص الذي يؤمنون بوجود ناسخ ومنسوخ فيه ، اضطر للتغير في ذاته أثناء نزوله ليواكب تغيرات عصره ، وكل تغيراته كانت فيما يتعلق بالشريعة ، فعن أي صلاحية لكل زمان ومكان يتحدثون! ثم إن

فهم من "السلف الصالح" اقتضى مخالفة النص الصريح ، ودونهم عمر بن الخطاب ، الذي ألغى مصرفا من مصارف الزكاة المنصوص عليها! أو علي بن أبي طالب الذي استحدث آلية (العَوْل والعَوْد) مستدركا على القرآن طريقة تقسيم الميراث!

ثالثا: فهم المصدقين للقاعدة هذه ، التي يدعون وجودها ، لم يمنعهم من الاختلاف حول كل شيء ، لاسيما ما ورد فيه نص صريح ، ومن يعرف تاريخ الأحكام الإسلامية يعرف أنه لم يتفق دعاة الشريعة كلهم على أي حكم عملي ، والاختلافات كانت مشتقة من اختلاف المكان والزمان وحركة اللغة وغير هذا مما لا يمكن بعده الادعاء أنه (لا اجتهاد في نص).

حدود الله!

الحد هو التعريف وليس العقوبة ، ولكن المصدقين يوظفون كلمة حد في غير مكانها ، مدعين أنها نظام الشريعة كلها ، وهكذا تصبح الدولة التي تطبق قانونا آخر ، دولة لا تقيم حدود الله! وهذا فساد لغوي عظيم ، يقود إلى فساد واقعي أعظم.

يرِدُ تعبير (حدود الله) مرارا في القرآن ، ودائما بعد بيان أمر شرعي ، ومعناه دائما متعلق بغاية التشريع لا بالتشريع ذاته ، ويطالب القرآن الزوجين بأن يقيما حدود الله! فكيف تكون حدود الله هي نظام العقوبات! هل سيقوم الزوجان بقطع يد السارق مثلا!

ومن الغريب أيضا أن يدعي المصدقون هذا المعنى لكلمة حدود الله ، وهم يقرون في كتبهم أن كل تشريع ورد في القرآن له أصل أقدم من القرآن ، وأغلب التشريع القرآني يمكن إرجاعه إلى قضاء الحارث بن الظرب العدواني ، وإلى حلف الفضول ، وهذا من كتبهم هم ، وهم يقرون أن العُرف الذي يتعارف عليه قوم ما هو من مصادر التشريع الإلهي لهم! ومن المعروف أن القرآن في شرائعه وشعائره وفق بين شعائر العرب ووفق بين شرائعهم ، ولم يستحدث أمرا قط!

ثمة خطل لغوي آخر في هذه الدعوى ، وهو أن كلمة (يحكم) في القرآن لم تكن أبدا بمعناها الحالي ، فليست معنية أبدا بالمُلك ، وإنما هي متعلقة

بالتحكيم بين الخصـوم ، والخصـومة تحدث فيما لم يتفق عليـه القوم ، فـإذا اتفقوا فـالخصـومـة تنتفي ، وينتفي معها التحكيم أصـلا ، بل وإن القرآن يقر لكل من يملكون قانونا "شـريعة" خاصـة بهم أن يحكِّموا قانونهم هم ، ويسـتنكر أن يحكِّم اليهود والنصـارى الرسـولَ وعندهم التوراة والإنجيل! فأي عيار فاسـد هذا الذي يرفعه دعاة الشـريعة في وجه دولة القانون ليدَّعوا كفر "الحاكم" ، وكتابهم الذي يدعون إقامة دعواهم عليه ينقض دعواهم من أساسها!

ثم إن العدل والحق والقسط مفاهيم معروفة للبشر ، على أسـاسـها هي نحكم على أي شـرعة بالفسـاد أو الصلاح ، فما عرفنا من العدل والحق والقسط فهو ما أمر به الله ، وليس الحق والعدل والقسط هو ما اتفق ان كان شـريعة توافقية عند العرب أقرها القرآن ، ولا حق سـواه! الأمر الذي يقره القرآن هو أن نبحث عن الحق والعدل والقسـط ونحاول إقامة العرف على أساسه ، وبهذا نكون نحن كتبة الشريعة التي يريدها الله ، وتتغير هذه الشـريعة (القانون) بتغير فهمنا للعدل والحق والقسط ، كمفاهيم تناقشها الفلسفة ، وبتغير إنزالنا لها على واقعنا ، وبتغير الواقع نفسه.

هنا يبدأ مفهوم الله يتكشـــف لنا أكثر ، فهو لم يقل كلمات نهائية ثم غاب تماما كما يريده المتحجرون من المصـــدقين ، بل قادر على أن يقول أكثر ، وتنمو شريعته وتتسع وتتغير ، وبهذا نكون حللنا الخصومة بين الشـــريعـة والقـانون ، وتكون دعوانـا أن مفهوم الشـريعة هو الذي يتحرك ويتغير ليناسـب القانون لا العكس ، والقانون "الشـــريعة" يتحرك ويتغير بأيدينا ليناســـب فهمنا للعدل والحق والقســـط ، ويحقق التوافق ويكون عقدا اجتماعيا بيننا يصـــلح به أمرنا ، وقدرتنا على إقامة العدل والقســـط وإحقاق الحق هى إقامة حدود الله التي يطالبنا النص المرجعي بها.

كل ما ســـبق تم إثباته بأدوات المصـــدقين المعرفية حصـــرا ، كي يكون الحوار حول الله ممكنا ، لنتبادل الأدوات المعرفيـة ونتفق معـا مهمـا كـان موقفنـا من فكرة الله ، وهنـا يمكننـا الانتقـال إلى الكلام في الله ، وفي الصـورة المقبولة عقلا لكينونته ، وهو ما سـيكون موضوع وقفاتنا الآتية.

انتهينا من كل ما يحول دون وجود حوار عقلاني حول الله ، مجتمعيا وعلى مستوى الأفراد ، ووعدنا أن نعود للتفكير بصورة الله الممكنة عقلا ، وتقليب فكرة الله ، ومقاربة مفهومه ، بعد أن استبعدنا في حلقات سابقة أن يكون جسدا مشخصا منفصلا عن الكون ، وهكذا فنعود للغوص في ذاته لا إمكانيته ، وهذا الحديث ضرورة لمن اختاروا التصديق به ، وهو مهم لمن اختاروا التكذيب به كمعرفة نحاولها.

استثناء منقطع!

من منظور لغوي بحت ، فإن تركيب جملة الشهادة (لا إله إلا اللهُ) تركيب يستحق التأمل ، وتجد اضطرابا كبيرا في إعرابها ، واختلافا عليها ، ولأن الإعراب ليس إلا وسيلة لإيضاح المعنى ، فهذا يعني أن معناها مضطرب في أفهام علماء اللغة ، ومحاولة اكتشاف معناها محاولة مشروعة ، بل من يصدق بالقرآن مأمور بها ، كتدبر وتفكر في النص المرجعي.

نقول في العربية (جلس الطلاب جميعا إلا طالبًا) وهذا يسمى استثناءً ، والمستثنى منصوب ، لكن جملة الشهادة في صورتها القرآنية ، والتي يتابعها الناس كلهم هي (لا إله إلا اللهُ) ونجد المستثنى فيها مرفوعا ، لا منصوبا ، وهذا أسلوب يعرف بالاستثناء المنقطع ، ومثاله (جلس الطلاب جميعا إلا المعلِّمُ) ، وفيه يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه ، أي أن جملة الشهادة قد يحمل معناها على أن الله ليس من الآلهة! ويحمل الضمير المبني (هو) الوارد في الصياغات الأخرى على أنه في محل رفع ، لا محل نصب ، أسوةً بالجملة الأساس التي يرد فيها اسم الله واضحا.

ولأن كلمة (إلهكم) ترد في القرآن متعلقة بالله ، فوجب التفكير أكثر فيما رجحناه من معنى لجملة الشهادة ، وعند استعراض الآيات التسع اللائي ترد فيهن لفظة إله متعلقة بالله ، نتفاجأ بأنها جميعها تحمل معنى توحيد الإله ، أي نفي الألوهية عما اتخذه الناس آلهة ، وهذا مباشر واضح فيهن كلهن سوى في آية سورة طه ، التي تلي قصة السامريّ ، ولو ترجعنا الآيات قبلها سنجد دعوى السامري بأن العجل

الذهبي هو إلههم وإله موسى ، وبذلك تستقر كل الآيات التي ترد فيها اللفظة (إلهكم) على أنها تفيد نفي الألوهية عن الآلهة ، وإثبات فعل التألُّه لواحد ، هو "رب العالمين" أو الله.

يتصف الشيء بالألوهية أو بكونه إلها إذا عُبِد ، فالناس قادرة على اتخاذ آلهة غير الله ، من الأصنام وسواها ، أي أن الألوهة صفة يمنحها العابد لمعبوده ، لكن الربوبية صفة تحتاج فعلا من الذات التي تسمى ربا ، أو الذوات التي تسمى أربابا ، ولهذا فمن دعاهم القرآن أنهم يُتخذون أربابا من دون الله ، من النبيين والرهبان والأحبار ، هم ذوات فاعلة ، حية ، ولم يسم الأصنام أربابا ، فالربوبية لغة هي صفة ممكنة لكل راع ، يكتسبها بكونه يرعى ، كالأب ربا للعائلة والبيت ، والرئيس ربا للعمل ، وينهى الله في القرآن عن اتخاذ أرباب دونه ، لكنه ينهى عن اتخاذ آلهة معه.

وهنا يتبدى لنا أن مخ الرسالة القرآنية هو أن يكون رب العالمين وحده إلهًا للمسلمين! لا أن يكون رب المسلمين إلهًا للعالمين! أي أن على المصدقين بالله

ألا يمنحوا صـــفة الألوهية لأي كان غير ما يعرفونه راعيا للعالمين جميعهم "رب العالمين" ، وليس أن يفرضـــوا راعيهم (ربهم) إلها للعالمين! وها أنا أقلب الجملة مرارا حول المعنى نفسه ليتضح الأمر.

ولكي يتضـــح الأمر أكثر لابد أن نقوله بكلمات من عندنا نحن ، حتى نتجنب ما التبس من مفاهيم بســـبب تكرار الألفاظ الرامزة إليها في غير مكانها ، لتناســـب ما يرثه الناس من عقائد فيطوعون النص له ، وإليك المعنى بلغة أخرى:

المصـــدق بخبر الغيب الوارد في القرآن ملزم بنزع أي إله (رمز للوعي الجمعي) خاص بقبيلته أو جماعته الضيقة ، ومنح الألوهية (استحقاق العبادة والطاعة وكونه رمزا للوعي الجمعي) لواحد لا شـــريك له ، هو الله ، الذي هو رب العالمين جميعهم حسب القرآن ، وليس رب المسلمين المصدقين بالقرآن وحدهم ، أي راعي جميع الناس ، من يصدق بالله ومن يكذب به ، وهو إذا ملزم بطاعة من يرعى الجميع ، وهكذا هو ملزم برعاية الجميع اتباعا لمن ارتضاه إلها.

والله هنا ليس إلــهًا كالآلهة المعتادة عند العرب ، بل هو مختلف عنهم وليس من جنســهم ، وهو متصــف برعايـة الجميع ، فهو رب النـاس كلهم ، وهو واحـد ، يطالب المصــدق بالقرآن أن يراه مبتدأ كل شــيء ، ومنتهى كل شيء ، مختلفا عن كل شيء ، حاضـرا في كل شــيء ، يعلم كل شــيء ، متلبســا بمفاهيم يعيها الإنســان مســتقلة عنه ، هي الحق والعدل وغيرها من الصــفات التي يعظمها الإنســان في عالمه المشــاهد المحسوس.

لكن الله تحول في أفهام أتباع الديانة المحمدية اليوم إلى رب لهم ، وعـدو لغيرهم ، وبـاتوا يتعـاملون معـه كأنـه إلـه القبيلـة المســلمـة ، أو إلـه الفرقـة العقـديـة الواحدة ، تماما كما كانت قبائل المشــركين ترى في آلهتها رموزا خاصـة بجماعتها ، بل ومنهم من يجسـده ويضــعه في الســماء على كنبة ويتخيل له أوصــافا بشرية تشبه عرقهم ، فالشاب الأمرد الذي يصفه غلاة أهل الحديث على أنه الله ، يتصـف بصـفاتهم العرقية العربية ، كما أن المســيح عند كل قوم يألهونه يغدو شــبيهـا لهم ، فمنهم من يجعلـه إفريقيـا ومنهم من يجعله أوروبيا ، وهكذا...

وهذا الذي ورد في الفقرة السابقة هو ضد ما نلمسه في القرآن تماما ، وكأن القوم بحثوا عن مطلب القرآن وخالفوه عمدا ، فقلبوه تماما ، فبدل أن يكون الله ربا غير مدرَك ، نكسر من أجله الأصنام على الأرض ، صار الله في أذهانهم صنما كأصنام الأرض لكنه في السماء ، وله تجسد وأبعاد ، وينزل إلى السماء الدنيا ، وكأنه لا يسمع الناس إلا إذا اقترب منهم مكانا ، وكأنه ليس أقرب للجميع حسب القرآن من حبل الوريد! وبدل أن يعتقدوا بأنه راع للجميع ، بات راعيا لهم وحدهم ، بل يكاد أن يكون راعيا عندهم! فزاعة يضعونها في مزارعهم ليمنعوا سائر مخلوقات الله ثمار الله.

إلى هنا نكون قد رأينا مقتضى القرآن حول الله ، ويكون لزاما علينا أن نعود لنفكر في إمكانية الكينونة لله ، وندخل أكثر في الصورة الممكنة له ، ولذلك وقفات قادمة.

في الحلقة السابقة زعمت أن الاستثناء في (لا إله إلا الله) استثناء منقطع ، ليكون معناها ، بعد أن حللنا معها كثيرا من الأوصاف القرآنية لله: لا إله كائن ، لكن الله كائن. أو لا إله حق ، لكن الله حق! وهذا الإبدال نورده لفهم التركيب ، ولكي نجمل فهم الحدود الواردة في التركيب ، فنعيد الصياغة في الحدود والتركيب معا ، لتصبح: لا نعترف برمز فئويٍّ ، لكن راعي الجميع رمزنا!

وما دام هذا هو مؤدى تعبير الشهادة ، فإن سؤالا جديدا يقفز لوعينا ، وهو لماذا إذًا يتصرف المصدقون بالله في ملة محمد اليوم بعكس هذا المؤدى ؟ فبعضهم يرى أن دم الجميع وعرضهم ومالهم مباح ، إلا من عصم دمه وعرضه وماله بنطق الشهادتين! لماذا يسمون المسيحيين حينا بأهل الكتاب ، ويعتبرونهم كأقرب الناس لهم ، وحينا يعدونهم كفارا مباحي الدم! ولماذا يسألون أهل الذكر من اليهود حينا ، وحينا ينسبون كل غرائب عقائدهم لكفريات جاءت من الإسرائيليات!

تاريخ الاعتقاد

إذا كنت تظن أن البارزين في التاريخ الإسلامي ، حتى داخل المذهب الواحد والفرقة الواحدة ، كانوا يملكون الاعتقاد نفسه ، فأنت محتاج لإعادة النظر ، بل للنظر من الأساس ، فمن سبق له النظر في عقائد القوم لا يمكن أن يظن أنه ثمة صواب واحد كان عليه كل من يراهم اليوم على صواب ، وتعدد المؤلفات هو بسبب تعدد العقائد ، وليس بسبب تعدد المشكلات التي بدت لكل منهم ولم تبد لمن سبقه ، بل وإن تعدد هذه المشكلات جاء بسبب تعدد العقائد.

والظن الفاسد القائل بعقيدة واحدة كان عليها أعلام كل فرقة ، آت من التعامل اللاتاريخي مع فكرة الإسلام كلها ، لاسيما مع النص المرجعي القرآن ، وهذا قد سبق وأن بينت فساده في سلسلة أخرى هي (قفاز القرآن) ، خلصت منها إلى أن القرآن قد خلق في نفس محمد ، وتطور بتطور الدعوة ، ولا يجوز إطلاق كل ما جاء فيه ، ويجب إنزاله على تاريخ القرآن وأطواره المختلفة ، وأطوار الدعوة المحمدية

وخصوماتها المختلفة وأحلافها المختلفة ، وكل هذا لا ينتقص من كونه آية عند من يريد التصديق به ، وأن العيار في فهمه هو التعبير العربي للقرآن.

اليوم من يقرأ القول ويقرأ ضده في الإسلام ، يذهب للكاهن الإسلامي فيسأله ، ويقوم الكاهن حسب رغبته بوسم الذي القول الذي لا يتوافق مع هواه بأنه منسوخ ، ويسم القول الذي يوافق هواه بأنه ناسخ ، وحق لنا أن نسأله مقرعين إياه: أليس هذا اتخاذا للرهبان والأحبار ومن ماثلهم أربابا من دون الله!

ويأتي السؤال الذي يليه ، وهو مادام أن المفترض من المصدق أن يلغي كل رمز فئوي ، ويجعل رب العالمين كلهم رمزا له ، فلماذا يكون ثمة جماعة مستقلة للمؤمنين ، تشن الحروب وتتصدى للحروب ، وتولي أميرا ، وسوى ذلك مما حدث على مدار التاريخ الإسلامي مما لا يتوافق مع هذه الفكرة ؟

وهنا أعود لمقال قد فصلت فيه معاني الكلمات المحورية في هذه الصراعات ، من الشرك والإسلام والإيمان وغيرها ، وظهر عن طريق اللغة العربية

والتاريخ أنها لا تُعنى بالاعتقاد ، وأنها كانت مصطلحات سياسية ، كلها تدور حول علاقة الفرد بالجماعة ، فالمسلم من أدى السلم ، والمؤمن من أدى الأمن ، والكافر من طلب غلبة الفرد على الجماعة ، والمشرك هو صاحب الولاء الفئوي ، وسوى ذلك من مصطلحات ، وهنا يظهر أن سيرورة التاريخ وانزياحات اللغة هم المسؤولون عن الصورة التي نراها اليوم لفكرة الإسلام.

والسؤال هنا ، لماذا قد نريد إحياء الاعتقاد الذي نرى أن التاريخ غيره ، وأن حطام اللغة بسبب تغير المفاهيم غطاه ؟ لماذا كل هذا العناء ؟ وما دام الموضوع إراديا فلم التعلق بكل هذا ، لم لا نسير سير أوروبا إلى فكرة "موت الإله" ومن أراد التصديق بالخالق العظيم يستطيع حينها أن يبدل اسمه لاسم آخر ، ويتخلص من كل هذه التركة الثقيلة ، المتشابكة ، ألا يعيدنا هذا لنقاش مؤدى التصديق ومؤدى التكذيب ، لنجد أن الفضل بات مع كل هذا العناء للتكذيب!

هذا هو ما سـيكون موضـوعنا في الوقفة المقبلة قبل الانتقال إلى صورة الله الممكنة ، وكيف يجدر بالجميع أن يقاربها ، ويقارب معها ما علق بها من مفاهيم.

خلصـــنا فيما ســـبق إلى أن الاعتقاد بالله الذي يقبله المنطق ، يحتاج البحث ، ويلزمه البعث ، في ظل ما تراكم من تشـــويه لحق اللغة ، وفي ظل ما التصـــق بصـــورة الله الشـــائعة من باطل ، ولأننا بحاجة لما يدفعنا في تلك الطريق ، رأينا أن الحديث في تسـويغ خيار التصـــديق بعد كل العناء المصـــاحب له ، بات ضرورة لا محيص منها.

لماذا الله ؟!

سـنورد على سـبيل التعداد ، لا على سـبيل الحصـر ، بعض ما يجيب على سـؤال "ما الذي يُبقي التصـديق خيارا عندنا ؟" ، أو "لماذا لا نختار الخيار الأســهل في ظل كل هذا العناء لاختيار التصـــديق بالله ؟" ، وهذا لـه فـائـدتـان في الحقيقـة ، إحـداهمـا متعلقـة بـإبقـاء الجـدل حول الله دائرا ، والثـانيـة متعلقـة بجعـل المكذبين أكثر تفهما لأخيهم المصـــدق ، وإليك ما نعده في صالح فكرة الله على سواها:

1. بعث المفاهيم الجماعية في عقل الإنسان الذي يختار التكذيب بالله وعاطفته ، يحتاج عناء منطقيا أكبر من تسويغ التصديق المنطقي. والمفاهيم الجماعية ضرورة لبقاء الجماعة كجماعة والحيلولة دون تحولها لحشد من الأفراد المتفرقين ، لاسيما وأن الشعور الجمعي يصاحبه ما يصاحبه من ألم وتعب ، واهتمام بالهم العام ، يكون معه التكذيب الفرداني النزعة أسهل مهرب من هموم أخرى لا تتعلق بفكرة عالم الغيب.

2. الحفاظ على الاتصال الحضاري للأمة العربية يتطلب فك المعاضل المتعلقة باستعادة تصديق منطقي ، يجعل القطيعة مع الماضي نوعا من العبث الذي ليس له داع ، وسوى ذلك تصبح القطيعة مع الماضي ضرورة لتحديث العقل العربي.

3. انعجان الهوية العربية بالهوية الإسلامية زمنا طويلا يجعل تهديد الهوية الإسلامية تهديدا للهوية العربية ، في عالم مبني حتى اليوم على الهويات القومية.

4. تجريف العوالق اللغويـة التي تمنع التواصـــل العربي العربي صـــعبـا ، يحتـاج دافعـا قويـا عنـد المصـــدقين التقليديين ، وعند العرب عموما ، وليس أفضل من الكلام في الله لأداء هذا الغرض.

5. الخطر الأكبر على أي هويـة جمـاعيـة اليوم هو الخطر الليبرالي ، الذي لا يرحب بأي صـــبغة جماعية سـوى الميول الجنسـية ، والطائفة ، والعرق ، وبذلك يكون الله ضـــرورة عربية ، فمنطقتنا لا تحتمل هذه النزعات التي منذ انتشـــرت بدأت تحول عمراننا إلى حطام.

6. منطقتنا لم تمر بمسـيرة الحداثة التي تكفل حرية المعتقـد للجميع ، ولم تزل حتى اللحظـة تهـدد كـل مختلف ، وبهذا يكون المدخل الأفضـــل لبقاء التنوع الذي حفظته فكرة الله خلال عمر الأمة كله ، ما زال هو فكرة الله ذاتها.

7. تكريس الدوافع الفردية للفضيلة في واقعنا وضمن بنائنا المعرفي كجماعة محتاج لفكرة الله.

8. فشل المشاريع السياسية الجامعة الذي كان الصراع مع المصدقين بالعقيدة المحمدية بشكلها التقليدي سببا فيه ، يلزم عنه أن نعيد النظر بحثا عما ينقص هذه المشاريع ، وهو البنية الفوقية على المستوى الشعبي ، الديني ، وبذلك فاستعادة مفهوم صحي لله يرجح أن يكون سببا في نجاح المشاريع الجامعة القادمة.

9. حاجة المصدقين التقليديين في ظل التقدم العلمي لتحديث الأسس الفلسفية والمعرفية لتصديقهم بالله ، تفرض نفسها يوما بعد يوم ، وفكرة صورة الله الممكنة عقلا ، ستقدم لهم سبيلا لقبول المعارف العلمية والفلسفية التي طالما رفضوها لأسباب نفسية ومجتمعية.

10. انهيار الروحانيات في العالم الحديث كان مدخلا لأمراض إنسانية غير مسبوقة ، حفظتنا منها

زمانا طويلا حكمةُ القدماء في كل مجتمع التي احتالت على الوعي بأي تصديق وإن لم يكن منطقيا ، واليوم تنفتح هذه البوابة العدمية على مصراعيها ، وفكرة الله تقدم مخرجا حقيقيا ، إذا نزع فتيل الصدام بينها وبين الواقع والعقل.

11. فكرة توحيد أصل الإنسان بمؤداه ، المتوفرة في التصديق بالله ، ترفع من شأن فكرة الطبيعة الإنسانية ، وتوفر لها أسباب البقاء ، في ظل عالم يجنح أكثر فأكثر ليكون عالما ما بعد بشري ، حيث بدأ صراع الإنسان مع الآلة يغدو أكثر حقيقية من أي وقت مضى ، واستعادة رونق فكرة الطبيعة الإنسانية سيكون إحدى ركائز الحد من تغوُّل الآلة على الإنسان.

12. فشل الإلحاد الحديث حتى اليوم ، في تبني القيم الإنسانية العامة ، وتعميمها ، وعدم جعلها غطاءً لممارسات تفتقر للفضيلة ، يسوغ أكثر فأكثر جدالا يمنحه التحدي اللازم لتطوير نفسه ، وفكرة الله المقبولة عقلا قد تمنحه هذا التحدي.

13. الواقع الإنســاني الجديد الذي يتجاوز القوميات يوما بعد يوم ، يهدد جميع الثقافات ، واستعادة فكرة الله ، بصورته التي تسمح بالاختلاف ، تشكل سببا لاستدامة الثقافات التي يجد فيها الفرد حاجته للاعتراف ، وترى فيها الجماعات لاسيما جماعة العرب ، حاجتها للمفاهيم الجامعة.

14. خلخلة الكتلة الصلبة في عقلية المتطرف لا سبيل لها بمهاجمة فكرة تبناها لأسباب عاطفية ، لكنها تغدو أسهل بل ومغنما من مغانم الطريق ، إذا شاع تصديق جديد بالله ، يحرم عليه ممارساته المتطرفة ، سواء تلك الواقعية التي تهددنا أو نلك المعرفية التي تهدد سلامه النفسي.

15. كينونة الله في عالم الغيب ، في المنطقة المجهولة من المعرفة الممكنة ، تشكل حافزا دائما للمعرفة ، دون أن يكون هذا الحافز لا أخلاقيا ، فنحن سنسعى لله الذي نحب ، دون أن نعادي واقعنا المعرفي.

16. في ظل اللايقين العلمي الذي يفقد التنوير قدرته على استجماع قوته فيتكسر أمام اليقين الديني ، يجب علينا أن نوفر تصديقا ينتج الآثار الإيجابية لليقين ، ويستبعد الآثار السلبية له ، وبعث فكرة الله المقبولة عقلا كفيل بذلك.

17. محليا ، الجدل القائم بين النسخ المختلفة من الإسلام ، يدور ضمن منظومة معرفية مغلقة غير منتجة ، والأسس المدعاة لهذه النسخ المختلفة ، تمنع تطور المعارف ، وتنصر فئة متطرفة على سائر الفئات ، وفكرة بناء تصديق حديث ، أو بعث تصديق قديم صالح للحياة في ظل الحداثة ، تشكل ناصرا حقيقيا للفئات المختلفة على الفئة الباغية.

18. العربي المسكون بعقدة الذنب بسبب التنافر بين واقعه ومعتقده ، تفقده عقدة الذنب القدرة على الفعل الحضاري ، على المستوى الجمعي والفردي ، ونفي هذا التنافر من جهة الواقع بات مستحيلا ، فبات لزاما علينا نفيه من جهة المعتقد ، وفكرة الله التي نحاولها كفيلة بذلك.

هذا ما اتسع له المجال هنا من أسباب تدفع باتجاه البحث عن الله ، ولابد أن كثيرا منها موجود في قسم سابق عني بشرح بعض أسباب عدم وجود حوار منطقي حول الله ، على مستوى الأفراد ، فإن لم تذكر صراحة فيه ، فلا يلزم سوى بعض التحرير لإلحاقها بهذه القائمة ، وفي ظل كل هذا فإن أسهم خيار التصديق الذي نحاوله ترتفع أكثر فأكثر ، وتجبر خيار التكذيب على التكيف مع واقعنا ليلبي الحاجات الإجرائية التي يلبيها هذا التصديق.

يبقى أن نعود للغوص في فكرة الله ، ونقاربها من جهات مختلفة ، ونسعى لفهمه فهما يلبي ما سبق من مسوغات التصديق ، وتخيل صورة مفهومه المقبولة عقلا ومنطقا ، ونفي الصور الأخرى التي تعد من أكبر أسباب استدامة التخلف في واقعنا ، كبنية فوقية تمنع التحديث. ولنا في ذلك وقفات.

إذا كانت التصورات عن الله سابقة على الدعوة المحمدية ، وكانت الممارسات الطقسية (الشعائر) العربية مثلها ، وكانت القوانين العرفية (الشرائع) مثلهما ، كما سلف لنا أن ذكرنا ، وتركنا للقارئ أن يتحقق بنفسه ، مختارا المشرب الفكري الذي يريد ، فنحن أمام تساؤلين محوريين عن الله: ما الجديد في الدعوة المحمدية الذي جعلها علامة في تاريخ البشرية ؟ وكيف استقبل أصحاب المواقف المختلفة من الله هذه الوقائع التاريخية ؟

وسنتناوب فيما يأتي بين السؤالين مجاوبين على كليهما في كل شيء نتطرق له ، فنذكر جديدا ما في الدعوة المحمدية ثم نذكر المواقف المختلفة منه ، بادئين بالمكذبين ونختم بموقف عقلاني للمصدقين.

الجديد عند المحمد

أولًا: في التاريخ العربي ، أن بشارات بعث نبي جديد يكون هو المحمدان أو المحمد أو أحمد أو محمد ،

ويكون ملكا عربيا ملهما ، موحى إليه من قبل الخالق ، كانت بشارات مشهورة ، ومنتظرة ، حتى أن النصارى العرب الذين انتصروا على الفرس في ذي قار كانوا يهتفون باسمه ، والجديد أن قثم بن عبد الله (اسم الميلاد للنبي محمد حسب حديث منسوب له في المراجع الإسلامية) استحق مركز المحمد من خلال انتصاراته الجدالية والعسكرية ، وتمكن من كل من خاصمه إما بكسبه إلى صفه ، أو بتسفيه عقله علنا ، أو بتصفيته جسديا في معارك حقيقية ، كانت محل مجد عند العرب فوقروه وبجلوه وانصاعوا له ، ووجدوا أنه يستحق أن يكون الملك الموحى إليه الذي ينتظرونه.

موقف المكذبين من هذا أنه سيرورة طبيعية للمجتمع الجزيري والعربي الواسع ، وأن محمد هو قائد عربي فذ ، رأى المتاح له من فرص ، وعرف مواطن قوته وقوة مجتمعه ، واستطاع إطلاق شرارة حضارة في هشيم البدو ، ودان له العرب كلهم في سائر الأمصار العربية ، طوعا أو بالقوة ، وكل ما أقره من عقائد أو من شعائر وشرائع ، هو ما كان ممكنا أن يقبله مجتمعه في ذلك الوقت ، فإن أنصف المكذب

ولم يكن متحاملا أقر بأن محمدا إنسان مسكون بالفضيلة ، لكنه عارف بالمصلحة ، ولا يجد غضاضة من تطويع الفضيلة لأجل المصلحة ما دامت هذه المصلحة مصلحة جماعية ، وهو يمجد القوة ويرى الحق محتاجا لها ، ويراها عمياء بغيضة دونه.

أما موقف المصدق فهو أن كل هذا الذي سبق الدعوة المحمدية من شعائر وشرائع وعقائد هو من نبوات سابقة ، أسست الأرضية للدعوة المحمدية ، ويرى اكتسابه المتأخر لاسم محمد دليلا على أنه ليس ناتجا عن مؤامرة عشائرية ، فكل قبيلة تستطيع أن تسمي ابنا من أبنائها محمدا وتدعوه نبيا ، لكن حتى الذين سمُّوا بهذا الاسم طمعا في اختيار الله لهم كأنبياء ، صرفهم الله عن ادعاء النبوة ، وهكذا فكل هذا لصالح تصديقهم لا نقيضا له ، ثم إن اهتداء محمد إلى انتصاراته الجدالية والعسكرية والدعوية ، كان بفضل هدى الله له ، وكل ما يعده المكذب براغماتيا من محمد ، هو في الحقيقة مقصد من مقاصد الشريعة التي استمر عملها بعده ، فبقي المسلمون يعتقدون بأهمية القوة ، وأهمية الحق ، وبأن المصلحة الجماعية تغلب على أي شيء.

ثانيًا: المرونة التنزيلية والمرونة التأويلية للنص المرجعي. فالقرآن تمكن بالفعل خلال دول مختلفة، في حكامها وطبائعها وجماهيرها، ودرجات انزياح لهجتها عن لهجة بيئة محمد، من البقاء نصا مرجعيا أعلى، وإن ألحقت به منظومة الروايات الحديثية ولعبت دور مسوِّغ لبعض المخالفات الصريحة للنص، لكنه تمكن من البقاء كل هذه المدة، وما زال ممسكا بتلابيب العربي، وهذا بحد ذاته أعجوبة.

لا يرى المكذب هذه أعجوبة أبدا، فهو يرى القرآن نتيجة نهائية ساهم في إخراجها عدد من العوامل، فمحمد عنده واضع بذرة القرآن أي الجزء المكي ذي الآيات القصيرة الفاتنة، وهو شخص مبدع يمتلك من الخواص الذهنية ما يجعله هو ذاته يصدق وهم أنه نبي، وخواصه الذهنية هذه التي قد يسميها البعض مرضا عصبيا، هي عامل من عوامل انتاج القرآن، يعضدها انتقاء العرب، ومساهمات كتبة الوحي، وتنقيح البيئات العربية المختلفة له حتى مرحلة التدوين النهائي، وكثرة الترديد، واشتغال اللغة لصالح القرآن في البيئات التي تصدق به وحيا.

أما موقف المصدق ، فهو أن هذا وحي من الله ، سخر الله له أسباب البقاء ، ونسخ بعض أحكامه ، وأن القرآن حمال أوجه ، وهذه من نقاط قوته التأويلية ، وأنه ينطق بالرجال الذين يصدقون به ، وأن استشكال المعاني فيه على الناس ، وتشابه بعض آياته ، هو أمر طبيعي ، فالله يخاطب الناس بما علموا ، ولأن المنظومة العقدية التي يقدمها ، تتحدث عن إله في عالم الغيب ، الذي لا نعرف عنه شيئا ، فإنه من الطبيعي أن يكون خطاب الله للإنسان العربي خطابا تقريبيا ، وكل ما قد يعاب على القرآن هو من عيوب الاتصال اللغوي بكونه اتصالا لغويا ، أما منظومة الأحاديث فجاءت معينة لنا لنعرف كيف أنزل الرسول القول على بيئته ، فنشتق كيف ننزله على بيئتنا مهما اختلفت عن البيئة التي نزل لها القرآن ، والتي اختارها الله لدعوته بسبب موقعها الجغرافي ، واستهداف الأقوام الأخرى لنا هو استهداف لقوتنا وسبب قوتنا الأول وهو في تعريف المصدق الدعوة المحمدية.

ثالثًا: احتواء الخطاب المحمدي نصا وفعلا سياسيا للديانات السابقة على الإسلام. فالنص القرآني يقدم نفسه كإنجيل جديد وتوراة جديدة ، لجمع أكبر من العرب ، ولا يلغي ما سبقه بل يهيمن عليه ، وهذا وفر عديدا بشريا هائلا من النصارى العرب الذين عدُّوا تاريخيا في المسلمين ، ووفر عددا من أحبار اليهود الذين كانوا منتجين للأدبيات الإسلامية ، بعد أن تبنوا الدعوة المحمدية.

المكذب يرى هذا تطورا اجتماعيا قدم له المجتمع أسسه الفلسفية ، أو العقدية ، وتضافرت الجهود في سبيل تحقيق الحلم العربي ، بحضارة بعد أن كانوا أمة مستهدفة بسبب موقعها الجغرافي ، ومتنازعة بسبب تنوعها الثيولوجي في عصر ما قبل الدولة ، فباتوا أمة مجتمعة تستفيد من نقطة ضعفها الجغرافية وتجعلها سببا في مركزيتها الحضارية في العالم القديم.

المصدق يراه على أنه أمر الله بتنقية للديانات السابقة التي يقر لها بكونها دعوات إلهية ، مما علق بها من شوائب ، ومن تأخر التدوين ، وما لحق بنصوصها

من تحريف ، ويرى دعوته عالمية ما تزال راهنة حتى اليوم ، ويحاول النهضة العربية أيضا لكن بصبغة إسلامية ، ويرى هوية المسيحيين واليهود الماثلة في الهوية الإسلامية على أنها رواسب ثقافية عند المجتمعات التي قبلت الإسلام ، أو ما أقره الله مما كان عندهم ، ويعرف أن النصر متعلق بأسباب النصر ، ولذلك فلم يكن بد من هذا التقاطع مع الديانات العربية الأخرى ، دون أن يكون هذا تزويرا ، فكلها من الله ، وقد اهتدى هؤلاء لدعوة الله فقبلوها.

وهكذا قد نقدم كثيرا مما تتباين حول تفسيره روايات أصحاب المواقف المتباينة من الله ، لكننا ركزنا على أهم أسباب شيوع الدعوة المحمدية وقبولها عند العرب ، لكن ما دامت المواقف المختلفة من الله مواقف عقلانية ، فهي لن تعاني من شطط في روايتها الناظمة للوقائع ، وأزعم أن هذه الروايات يمكن أن تتجاور ، ولا تتجاوز على بعضها ، طالما كانت عقلانية.

وسنختم كلامنا في الله ، بوضع تصور ممكن عقلا لفكرة الله ، محاولين أن نلمس ذلك التصور الذي

تمكن من البقاء على العصـور السـابقة كلها ، ونقيمه في أذهاننا المحتوية على معارفنا الجديدة وآلتنا المنطقية التي لم تعد تقبل المتناقضـات ، تاركين فعل هذا التصـور في الأذهان لتقدم رؤاها الخاصـة حول كل ما هو موضع خلاف عند العرب اليوم ، على أنني سـأنطلق من هذا التصـور عند معالجة معاضـل أخرى ، حول واقعنا أو تاريخنا ، أو مسـتقبلنا الذي يجب أن يحتـل الجزء الأكبر من تفكيرنـا ، خـاتمـا القسـم قبل الأخير هذا بقول أزعمه (الجديد عند محمد لم يزل جديدا).

بعد كل هذه المقدمات الطويلة ، يبقى السـؤال: من هو الله ؟ فكل ما سـبق يعد أرضـية للانطلاق لمفهوم أزعم أنه يمكن قبوله عند الجميع بدرجات مختلفة ، لكن هذا يحدث _إذا وفقط إذا_ قاربنا مفهوم الله من الزاوية هذه ، وسـأجعل الإجابة على طريقة شعارات أرفعها ، ثم أتناولها بالشرح.

الله هو عقل الكون!

العقل هو مجال الفكر والمعاني ، والمعنى هو حركة في الذهن بين الدلالات ، فالعقل هو مجموعة من العلاقات والأنماط التي تحتوي المعاني وتنتظم الأفكار ، فإذا أدركنا أن في الكون ما في العقل كأنماط وتمثيل للشيء على عدة مستويات ، مما يحكم سيرورته ، من قوانين نعرفها كانت السبب لوجودنا هنا ، وكنا كمصدقين نرى أنها أمر الله ، أ فليس هذا كأننا نعتقد ضمنا بأن هذا تجل من تجليات الله ، فيكون الله مبدأ الكون ، ومنتهاه ، وحاضرا في كل لحظة منه ، في كل شيء فيه! دعك

من الصـــيغ البلاغية وانتبه للفكرة ، هذه العلاقات التي نستطيع أن ندرك بعضـها تمثل للكون ما يمثله العقل لنا ، أفلا نعد الكون كائنا ذا وعي! ويكون عقل الكون هو الله!

الله هو روح الجماعة!

الإنســـان كائن مجتمعي ، لو عزل عن مجتمعه لما وســعه أن يكون شــيئا غير حيوان آخر ، وقد يحتاج إلى ملايين الســـنين ليبني المجتمعات التي هو جزء منها اليوم ، ولن يفعل ذلك دون أن يخلق جماعات وجماعات ، يتلقى بعضـهم عن بعض تراثهم الفكري ، والجزء العملي من مفهوم الله ، هو ذلـك الجزء الخاص بالتعاليم المجتمعية ، التي تنظم علاقات المجتمع بعضـــه ببعض ، أليس في هذا إقرارًا بكون الله رمزا جمعيا! ينادي الجماعة لكشـف ما في الكون من أسـباب البقاء والحياة حســب قوانين هذا الكون التي هي أمر الله أو قدره ، أو ما يتجلى علينا به!

الله هو الفضيلة التامة!

الأخلاق منتج مجتمعي ، أنتجته الجماعات لما فيه خيرها كجماعات ، ونظمت علاقة الفرد بالمجتمع ، ولما كان الله روح الجماعة ورمزها ، فهو تمثيلها الأعلى للفضيلة ، الفضيلة التي تقرها الجماعة ، حسب خبرتها التاريخانية ، كان الله بالنسبة للجماعات ولأفرادها تمثيلا علويا للفضيلة التامة ، من حق وعدل وخير وجمال ، وهو ليس نتيجة التفلسف الفردي في مواقفه من حروب يقف فيها على الحياد فيحث على السلام ، وينظِّر للتسامح بشكل مجرد معزول عن واقع البشر من جماعات قد تتناقض مصالحها ، فتتحارب ويكون الله لكل جماعة نصيرها لحفظ حقوقها ، ولو اضطرها ذلك لتجاوز فضيلة السلام من أجل فضيلة البقاء! وكما تتوسل كل جماعة قوانين الكون ونواميسه لتبقى وتنتصر ، فهم يتوسلون الله لينصرهم ، وليهديهم إلى الفضيلة التي يكون عيارها مصلحة الجماعة ، وكل ما يسعنا كبشر هو أن نوسع الجماعة توسيعا ، لتشمل عددا أكبر من البشر إن أردنا أن تحل فضيلة السلام ، لا نوسعها بإدخال الجميع في تصديقنا ، بل باعتبار الجميع عند تحديد ما هو فاضل ، فيبقى الله فكرة كونية ، لكننا

نريد منه ما في صـــالحنا ، لا أن نترك حقوقنا ليأكلها غيرنا ونحن نتفرج باسم السلام والمحبة والتسامح.

الله هو نقيض الأنا العليا!

على المســـتوى الفردي ، فإن اعتقادنا بالله ، أو بأي فضـــيلة عليا ، هو ما يجعلنا نحاول الانتصـــار على غرورنـا ، لنعتـذر إن أخطـأنـا ، وننزل على الحق ، ونحكم بالقســـط ، ومحاولتنا للاتصـــال بهذا الجانب منا هو صـــلاتنا لله ، هو خلوتنا بأنفســـنا كل على طريقته ، ليتأمل في نفسه وفي
الكون من حوله ، في تجربة "روحية" تجعله أقرب للاتصال بأعماق نفسه ، وأقرب للاتصال بالكون من حوله ، هو مسيرتنا لتربية ذواتنا وترويضها ، لكي نقهر أصل الشرور وأبا الخطايا (الكِبر) ، ونلمس تواضعنا ، المنبثق عن اعتقادنا بالضـــعة الحقيقية أمام هذا الكون العظيم ، وأمام أهلينا وأمام القيم العليا التي نحتتها فينا الخبرة الجماعية!

الله هو شجاعتنا!

لأننا نضع أكثر ما نقدس داخل خانة أكثر ما نجهل ، نصدق بالله الكائن في الغيب ، الحاضر في وعينا ليجعلنا أكثر جرأة وجسارة على اكتشاف ما نجهل ، فنحن نبقي على فكرتنا القائلة بأنه دائما وأبدا سيبقى ثمة ما نجهل ، ويبقى هذا سببا لطلب المعرفة ، ولسعينا المحموم لها ، المعرفة تلك الوحيدة الصالحة كغاية للوجود البشري ، يكون الله آخر ما يكشف فيها ، ولن يكشف ، ويظل تصديقنا به مساعدا نفسيا لنا للاكتشاف والبحث ، كمفهوم مطلق يستحيل إدراكه ، لكن يجب السعي له.

الله هو اليوتوبيا!

في ضوء كل ما سبق ، يكون الله هو اليوتوبيا ، الطوباوية التي نسعى لها ، ونعلم أننا قد لا ندركها ، لكن لأي شيء نسعى إن لم نسعَ لها! فهو مفهوم

جماعي ملتصق بالفضيلة ، يلامسنا كأفراد ، ويشجعنا للمعرفة ، ويناديـنا نحو الخير المطلق ، الكامن فيما نجهـل ، وهو أولا وأخيرا خيـار لا يمكن قهر العقول عليه ، بل تأتيه ملء إرادتها ، إرادتها الفردية ، خيار نختـار التصـــديق بـه لجعـل وجودنـا أكثر منطقيـة ، ولنتجنب العدمية ، التي تسلب هذا الوجود معناه.

الله هو مانِحُنا الاعتراف!

حاجتنا للاعتراف من جماعاتنا التي نقرر أنها تسـتحق انتماءنا ، فنبذل ما نبذل من جهد ووقت وعاطفة في صمت ، دون أن نطالب جماعتنا أن تكافئنا ، يمنحنا إياها مفهوم الله ، الذي نصدق أو نختار أن نصدق أنه يعلم ما عملنا ، وننتظر منه هو وحده الاعتراف ، بما علمناه نحن عن أنفسنا ، وما عرفناه نحن من انتصار على كبرنا ، ونرتاح لفكرة أن ناموســه في الكون أن يجعل للخير الذي نغرســه ثمارا ، هو الجزء الناقص في أحجية الفضــيلة ، وهو الجزء الناقص في أحجية نفوســنا العجيبة ، كل منا يراها بصــورة تملأ هذا النقص وتسـده وتكفيه شـرور تناقض القيم التي يراها سامية حسب معارفه.

ولأنه كل ذلك فنحن ننزهه عن أن يكون متخيلا أو مدركا ، أو عنيدا نزقا ، ونراه غنيا عنا ، ونرى أنفسنا فقراء له ، ونسعى لرضاه ، ونبحث فيه ، ونسأله عما يريد منا ، فنسأل أنفسنا عما نريد ليكون مرآة وعينا وضمير الإنسان ، بل وضمير الإنسانية جمعاء ، لكننا يجب في الوقت نفسه أن نعيد النظر في كل ما يجعلنا نعتقد بغير هذا عنه ، فنعود للنصوص نسائلها عن الله الذي نختار أن نصدق به ، نختار أن نثق بكينونته ، ونعيد فهمها لتناسبه ، ونجعله حيا فينا ليرشدنا إلى ما فيه مصلحتنا نحن ، لا ما كان فيه مصلحة السابقين ، وبات مدمرا لنا اليوم ، معترفين للتاريخ بضروراته التي فرضت صورة معينة لله في وعي الناس ، فالله لم يطلق وصية أخيرة لنا ويختفِ ، بل هو حاضر قادر بحضورنا وقدرتنا ، وفهمنا له يزيد بفهمنا لأنفسنا ، ولم يجعل بيننا وبينه واسطة مؤسسية كالكنيسة الغربية ، أو كهنة ناطقين باسمه ، بل حررنا من حكم كل الآلهة فابتدأ بنفي الألوهية في مطلقها (لا إله) ، ثم أثبت ذاته (إلا الله) ، كرب راع للجميع ، ودعانا لتأليهه لا لتصنيمه! أفيجعل هو لنا أربابا من دونه!

وهكذا فمن قد تدعوه كافرا ، لأنه لا يصدق بالله الذي تصـــدق أنت به ، قد يكون أقرب للإيمان منك ، إذ الإيمان هو أداء الأمن للجماعة ، وكله مفاهيم سلوكية لا عقدية ، تبدأ بعدم تحزبه لفئة داخل الجماعة ، وهذا مطلب الشـــهادة ، وتمر على إماطة الأذى عن طريق قد لا يســـلكه هو فيما بعد ، فإن كان فاضـــلا عاقلا يســـعى لكل ما تحض فكرة الله عليه ، فهو مصدق بالله ، لكن اختلفت التسميات فقط.

وهي دعوة للمكذب أيضـــا ألا يعمم ما زهّده هو بفكرة الله على كل المصـــدقين ، فالله الذي هو ما أســـلفنا ذكره للمصدق ، يستحق منه أن يعيد النظر بما يعرفه هو عنه ، ولكن جهل الجهلة بأنفســـهم وواقعهم والكون ســـوّل لهم صـــورة جامدة عن الله ، فتعلقوا بقشور ألفاظ جاءت لتقريب مفهومه لأناس عاشوا في بيئة غير بيئتنا ، وكانت مشـــاكلهم غير مشـــاكلنا ، وحقق لهم وجود هذا المفهوم ما حقق لهم من قبل ، واليوم قد يحقق لنا أمرا آخر ، فنحن لنا فضيلتنا التي تتقاطع مع فضيلتهم ولا تتطابق معها ، ومع ذلك فقد عدوا غير المصـــدق مؤمنا ، وعاش بينهم يناظرهم

ويجادلهم في الأســواق والجوامع ، فكل ما تراه اليوم من تعصـــب وفئويـة وطـائفيـة واقتتـال هو نتيجـة الجهل ، والله بريء منه.

أتمنى أن تضع هذه الصورة الممكنة لله نصب عينيك وأنـت تعيـد قراءة القرآن ، فقـد تبني قراءتـك لـه قرآنـا آخر في وعيـك ، قرآنـا تفهمـه أكثر ، وتراه هو متحركـا لواقعك ، ولســـت مجبرا ولا مدعوا لتغيير الواقع كله ليتناسب مع مقتضيات ما فهمته سابقا منه ، بل أنت ســـتكون الداعي لتغيير الواقع لما تراه مصـــلحة لك ولمجتمعك وقومك والبشر كلهم.

لا أقول تمّ ولكني فرغت منه.